جرجي زيدان

منشئ الهلال

بقلم
أنور الجندي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

تصدير

مضى جرجى زيدان الى رحمة الله عام ١٩١٤ بعد حياة عريضة حافلة ضخمة ، لم يعرف قدرها الذين عاشوا ابانها · وان عرفوها فهم لم يحيطوا بها . ذلك لان المعاصر يغشاه أحيانا الضوء القوى فلا يستطيع أن يراه

والواقفون على المسرح لا يستطيعون أن يحكموا على العمل الفنى كما يحكم عليه المشاهدون له·ولذلك فان الكتاب والنقاد الذين كانوا يقفون مع جرجى زيدان على مسرح الفكر ، لم يصلوا الى فهم الآثار التى حققها فى تطور الفكر العربى ، وأساليب الكتابة العربية واتجاهات البحث التاريخى كما نفهمها نحن الذين جئنا بعدهم

وقد كان من الضرورى أن يمر جيل من الزمن تسقط فيه الحجب، وتزول الغواشى ، وتتكشف الحقائق ، وتتفاعل فيها آثار الرجل خلال البيئات : الادبية ، والعلمية ، والتاريخية ، والصحفية ، عندئذ يستطيع المنصفون تقدير آثار الرجل ، ووزنها ومعرفة قوتها الذاتية ، ونتائج تفاعلها

لقد مر اليوم على وفاة جرجى زيدان أكثر من أربعين عاما ، ومر على انشاء الهلال نيف وستون عاما · ومضى على اصدار أضخم مؤلفاته أكثر من نصف قرن · هذه المؤلفات الضخمة ، لاسيما كتابيه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، و «التمدن الاسلامى» ، وكل منهما يبلغ أكثر من ١٥٠٠ صفحة

ومع الاثر البعيد لهذين الكتابين · ولروايات الهلال · وللهلال نفسه · فان الرجل العظيم الذى شغل نفسه بالبحث بضعة وعشرين عاما من زهرة عمره ، لم يلق ما يستحقه من تقدير ، ولم يصدر عنه حتى اليوم كتاب يتناول حياته بالدراسة ، وأدبه وفكره بالبحث · وقد كان خليقا أن يؤلف عنه أكثر من كتاب أو بحث

وهو تقصير لا سبيل الى انكاره ، أو الاعتـذار عنـه فى تاريخنا الادبى • هذا مع تقديرى لما كتبه عدد من الباحثين من فصـول فى الهلال عن حياة الرجل ، وما الفه عـدد من طلاب العلم من رسالات للجامعات عن جرجى زيدان والهلال

غـير أنه كان من الضرورى أن يدرس جرجى زيدان دراسـة موضوعية ، وفق أصول البحث العلمى من جيلنا • هذا الجيل الذى استطاع أن يعيش فى ظل آثار جرجى زيدان ومدرسته ، والتيارات التى أجراها فى ميدان الفكر ، والتاريخ والادب ، والتى بدأ تفاعلها فى أدبنا المعاصر يأخذ دورا ايجابيا واضحا

ذلك أن المدرسة العلمية فى التفـكير ، والموضوعيـة فى الادب ، ومدرسة الاسلوب التلغرافى ، والبحث العقلى القـائم على الاستقراء مدينة كل الدين للرجل الذى رسم لها الطريق ومهد لها السبيل ، وفتح امامها الآفاق ، وتحمـل المتاعب الاولى التى تواجه كل رائد جديد ، يسلك بالناس طريقا غير مطروق ويفتح أمامهم بابا من أبواب التجديد كان مهوبا وموصدا ، وكان الرجعيون يقفون بالمرصاد لكل من يقترب منه

لقد احتمل جرجى زيدان مشقة الريادة ، وجدل الجامدين ، واسفاف المغرضين ، وأعرض عن مجادلة المعوقين ، ولم يحسب حسابا الا للعلم وحده • وللعمل الخالص الصادق الباقى ، وانطوت هـذه الزوابع وذهب الزبد جفاء ، وبقى جرجى زيدان وآثاره تنفع الناس

ولقد كان الشعور بأهمية دراسة جرجى زيدان يملأ نفسى منـذ وقت طويل ، منـذ عشر سـنوات كاملة • منـذ بدأت أدرس الادب العربى المعاصر من نفس الخط الذى وقف عنده العالم الكبير • وفى خلال هذه الفترة الطويلة ، وخلال دراستى المتعـددة للجـذاذات والفصول والابحاث ، للصحف والمؤلفات التى صـدرت منذ أوائل القرن العشرين حتى اليوم كنت أحس بمدى الدين الذى وضـعه هذا الرجل فى أعناقنا . كنت أشعر بمدى الاثر الضخم الذى أذابه

فى أفكارنا . كنت القاه فى كل انتاج حديث ظهر بعده . كنت القـــاه فى العقاد ، وأحمد امين ، وسلامه موسى ، وهيكل ، وكثير غيرهم

ولقد دفعنى هذا كله الى أن أدرس حياة هذا العالم العلامة ، فلما أخذت أبحث حياته وأتعمق كتاباته ، ملأ روحى اعجابا وتقديرا بطابعه النفسى المتواضع الكثير الاعتداد . الذى هو بالسنبلة من القمح أشبه، تنحنى لأنها مليئة ، فيه الخلق الى جوار العلم • وفيه البســاطة الى جوار العمق . وفيه الروح الى جانب العقل ، ولطالما كان العلماء مثلا من أمثلة التواضع والحياء

لقد رأيت حياة جرجى زيدان وهى تبدأ متجهمة قاســية جافة ، ولكنها لا تجد من النفس الكبيرة ، التى وهبها الله اياه ، الا مزيدا من الجد والعمل والكفاح الطويل ، فى سبيل الوصول الى الهدف المرصود، والغاية المرجوة • ويظل جرجى زيدان يحرر روحه القوية المضيئـة من آسار الحياة المجهدة المنهـكة حتى يتحرر ، وينتصر ، ويصل الى الذروة ويصبح عالما فذا بعيد الأثر فى حياة الأدب العربى والفكر العربى ، والصحافة العربية

واذا كان قد أتيح لى اليوم أن أقوم بهذا الواجب الادبى عن جيلى فى دراسة جرجى زيدان ، والبحث فى آثاره وانتاجه ، فانما أود أن أكون متجردا للغاية ، منصفا للرجل ، واضعا نصب عينى مسئولية المؤرخ والناقد ، التى لا تعرف المجاملة ولا تنحرف عن احقاق الحق

وانى أعتقد أن جرجى زيدان كان رجــل عقل ، ولم يكن رجــل عاطفة • وكان يؤمن بحرية العقل وكلمة الحق • وكان يرحب بالنقد ولا يضيق به فى حياته ما دام صادرا عن نفس منصفة ، لا يشوبها هوى ولا يدفعها قلق

وفى حدود هذا الاتجاه أرجو أن أواجه حياة جرجى زيدان وآثاره

حياته

- حياته العامة
- شبابه
- ثقافته
- شخصيته
- أسلوبه ومذهبه الادبي
- تجربته وخبرته

حياته العامة

حياة قصيرة اذا قيست بالسنوات ، فقد قضى جرجى زيدان فى الثانية والخمسين ، وهو عمر قصير بالنسبة لأعمار كثير من المفكرين والأدباء الذين بلغوا سن السبعين أو تجاوزوها . وقد كان يمكن لو امتد العمر بمثل هذا الرجل ، الذى شغل كل دقيقة من وقته بالعمل ، أن يقدم مزيدا من العمل الادبى والفكرى ، يضـــاف الى آثاره التى قدمها ، فغدت مرجعا لكل باحث

ولعله كان قد أعد عددا من الابحاث ، لم تزل تحتاج الى مزيد من المراجعة والمقابلة ، لتستوى كتبا وآثارا يمهد بها للباحثين ، فتكون المراجع الأولى لفن أو لآخر ، كما كانت كتبه عن التمدن الاسلامى وآداب اللغة العربية والانساب،وطبقات الخلق أو علم الفراسة.اذكان فى هذه الأبحاث كلها رائدا فى العربية لم يسبق ، وان سبق فقــد كان هو موسوعيا شاملا، لايستغنى عنه اذا ماطلب الباحثمراجع، فيها من الشمول ، وفيها من التجرد ، وفيها من الوضوح والاعتدال

فقد استطاع جرجى زيدان أن يكسب ثقة قارئه بأسلوبه الواضح، وأعصابه الهادئة ، وعباراته النقية ، وطريقته المستأنية التى ترضى الباحث ، وتعطى للقـــارىء الراحة النفسية التى تجعله يمضى فى القراءة ، ويوغل فيها ، وقد ملأه اليقين بصدق الباحث وســلامة اتجاهه

غير أن حياة جرجى زيدان ، وان كانت قصيرة فى عدد السنين ، فقد كانت عريضة ضخمة موفورة عميقة . ولعل عمقها وعرضها هو الذى قصر بها وانهاها باكرة . اذ كان ينفق من وقته وأعصابه ما يعجز عنه الانسان الطبيعى — على الرغم من ضخامة جسمه ؛ وقوة بنيته، وسلامة نفسه، وصدق عزيمته . وماظنك برجل كتب فى اثنين وعشرين عاما أكثر من ٣٥ الف صفحة ، ما بين رواياته

ومؤلفاته والهلال . ولم تكن هذه الكتابات انشائية ، اذن لكان ذلك مقبولا ، وانما هى ابحاث عقلية ، راجع لها مئات المؤلفات الانجليزية والالمانية والعربية . قراها واستوعبها ، وحاول ان يربط بينها ويصفيها وينقى آراءها ، ويغلب اصدق رواياتها ، ثم يسيغها ويهضمها ، وينقلها الى مؤلفات لها طابعها العلمى

لا شك أن هذا الجهد الضخم الذى بذله جرجى زيدان ، فى هذه الفترة الباكرة من عمر المفكر العربى المعاصر ، من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وفى زمن كان التقدير المادى للادب ضعيفا وقليلا . ومع نفس عزوفة بطبعها عن التملق او التزلف أو اصطناع أساليب الكسب الذليل ، كان من شأن كل هذا ان يعجل بنهاية العالم الذى كان يعتمد على قوته الذاتية واعصابه القوية ، ويكتفى بالقليل ويرضى بالضرورى ، ولايتطلع الى الكماليات اوالمظاهر

وحياة جرجى زيدان الفكرية الخالصة ، هى عمره الأدبى ، فى خلال اثنين وعشرين عاما ، من عام ١٨٩٢ ــ ١٩١٤ ، وما سبقها انما كان تحضيرا واعدادا ، لهذه الدفعة الضخمة التى تشبه الى أبعد حد حياة الأعلام من أدباء العرب الذين سبقوا فألفوا مئات من الكتب . ففى خلال هذه العشرين عاما أخرج جرجى زيدان أكثر من ثلاثمائة مجلد من الهلال والقصص والكتب . أخرجها فى صبر وايمان يجابه الصعاب فيها بعزيمة المؤمن ، ويواجه المتاعب فيها بروح العالم . يكتب ويراجع ويصحح ويعد الصور والخرائط والأغلفة . ثم يشرف على كل مايتعلق بالتوزيع والتصدير والحوالات والبريد والرد عليه . ومحاسبة المشتركين والموزعين . كل هذا كان يفعله فى صبر وثقة وأناة

ولطالما وقف وراء «الرخامة» التى تجمع عليها الحروف ، ساعات وساعات ، وهو يكتب ويصحح ، يكمل فصلا ويختصر آخر ، ويرسل « كلشيهاته » الى أوربا ليصنعها هناك

وهو بين كل هذا المشاغل يقرأ ويكتب ، عشرات من المؤلفات والصحف والمجلات كانت ترد اليه من أوربا . ما من كتاب عن

العرب او الاسلام أو الأدب العربى الا ارسل فى طلبه وقراه وانتفع به

كانت مكتبته عامرة ضخمة : الجذاذات والملفات والمجلدات بها تزحم اركانها، ولا يستطيع احد أن يمد يده اليها أويحاول تنسيقها. تضم مراجع فى مختلف أنواع البحث التاريخى والاجتماعى والأدبى

وفى حومة هذا المعترك كان يعيش جرجى زيدان ، معظم الوقت ، مرتب الذهن ، طيب النفس ، يقسم وقته بين العمل وبين المقابلات وكانت له جلسات طيبة فى بيته تحفل بأهل الفكر والأدب . وكان كل «عصر» يجلس فى مكتبة الهلال بالفجالة ، ويلتقى فيها بالمفكرين والباحثين والشباب ، وقد لقيه فيهـا شباب أصبحوا بعـد كتـابا كبارا ، منهم العقاد ، والزيات ، وانطون الجميل

***

ومن العجيب أن جرجى زيدان بدأ هذه المرحلة من العمل الفكرى فى سن الثلاثين

ولكنك لا تحس وانت تطالع آثاره بأنه فى أول الشـباب حيث النفس مستطيرة ، والعقل لم يكتمل نضجه ، وانما ترى أسلوبا واضحا وروحا فيها عمق التجربة ، ومظهر الرجولة الكاملة ، وطابع العلماء ...

وعندى أن شباب جرجى زيدان لم يكن فى مظهر اسلوبه او افكاره او كتاباته ، وانما كان فى ذلك الروح القوى الذى ظل الى آخرلحظات حياته شابا فياضا ، مندفعا فى العمل بقوة ، لا يبالى الزمن ولايحس الحاجة الى الراحة . فقد كان مدرعا بالعافية نتيجة لاستقامته ، وبعده عن مزالق الاهواء ، واتجاه مسراته كلها الى العمل الذى وهب له نفسه وأعصابه ووقته كله

لم يكن شباب جرجى زيدان فى أسلوب كتاباته ولا موضوعاته ، شأن الكتاب فى شبابهم عندما ينهجون نهجا ثم يتحولون عنه بعد أن ترتفع بهم السن . بل كان جرجى زيدان فى يومه الاول كيـومه

الأخير : منهجا ، وأسلوبا ، واتجاها . بل كان شباب جرجى زيدان فى مذهبه الادبى . مذهب البحث عن الجديد من الافكار والتحرر من أساليب البحث القديم ونفوره من جمود الآراء التى تريد أن تقف بركب الفكر والحياة عند حد محدود ، كان يتطلع الى الأمام وينظر الى الغد ، وينفذ الى المستقبل فى قوة وايمان

شبابه

شريط طويل من الحياة، فيه الجبل والبحر، والوادى والصخر ، والظمأ والتعب ، والسهر والعرق والدموع ، فى خلال ثلاثين عاما من شباب جرجى زيدان ، ذلك الذى عاشه الشاب المتطلع الى المجد . بين بيروت والقاهرة والخرطوم قبل أن يخرج الهلال عام ١٨٩٢

انه قصة كفاح طويل فى سبيل العلم، بداها فى بيروت مسقط راسه. فى مدرسة ابتدائية ، ثم عمل مجهد مع والده فى المطعم الذى كان يملكه ، لم يصرفه عن دراسة اللغة الانجليزية فى ستة شهور . ثم تصميم على الدرس، واستعداد لكلية الطب، واجازة فى الصيدلة . ثم سفر الى القاهرة لاتمام دراسة الطب. ثم عمل فى الصحافة فى جريدة الزمان . ثم سفر الى السودان مع الحملة النيلية . ثم عـودة الى مصر . ثم عودة الى دمشق . ثم اتصال بالمجمع العلمى . ثم دراسة اللغات العبرية والسريانية . ثم عمل فى المقتطف

انها عشر سنوات قضاها جرجى زيدان مع والده .. لم تمنعـه يوما واحدا من التفكير فى مستقبله ، ولا فى هدفه الذى أحبه وملأ عليه نفسه . وهو الأدب والصحافة والكتابة

لقد كانت تمهيدا طيبا بالرغم من مظهرها المتجهم . ففيها تعلم الانجليزية وأتقنها والتقى بطائفة من الأعلام كانوا يزورون مطعمهم. وفيها قابل صفوة من الشباب المتطلع الى المجد مثله . وقرأ كتبـا عدة وخلالها فى المساء انتظم فى جمعية شمس البر الأدبية

كانت النفس الطموح تدفعه فلا يقف لحظة عن الاستعـداد لغايته : غايته القريبة وهى ان يكون طبيبا نافعا فى حيه ، تدر عليه

مهنته ما يكفية ويكفى والديه . وغايتـــه البعيدة وهى الثقافة والكتابة والعلم . هذه الغاية التى كانت حتى ذلك الوقت مبهمة فى نفسه غامضة ، لا يعرف من مرماها أكثر من أن يصل الى قدر من الثقافة ، يؤهله ليكون انسانا عميق الفهم للحياة . ولقد بقيت هذه الغاية مطوية فى نفسه حتى بدأ يؤلف كتـــــابه الأول « انساب العرب » عام ١٨٨٥ الذى قدمه للمجمع العلمى الشرقى ثم عمل فى المقتطف عامين مديرا له

هنـــاك أشربت نفسه فـكرة اخراج « الهلال » الذى ظهر وله سمت آخر مغاير لمجلة المقتطف . فيه طابعه الواضح : « الطابع التاريخى » الذى كان قد توفر عليه بالتأليف والدراسة

ذلك أن « المقتطف » كان مجلة علمية بحتة . وكان للأدب فيها جانب ضئيل ، أما « الهلال» فقد كان مجلة أدبية تاريخية فى الاغلب صورة جرجى زيدان نفسه فى ثقافته واهدافه الفكرية

وان كان جرجى زيدان قد اشتغل محررا فى جريدة الزمان ، بعد حضوره الى مصر ، فان المقام لم يطل به فى هذه الجريدة اليومية ، اذ سرعان ما غادرها ليسافر مع الحملة النيلية الى السودان لانقاذ غوردن

وان كتابه عن « انساب العرب » واتصاله بالمجمع العلمى الشرقى ودراسته العبرية والسريانية ، بعد أن ارتفع به السن ، لتعطينـــا كلها الدليل الاكيد على وضـــوح الطابع الذى بدات تتبلور فيـــه شخصيته . وهو طابع « العالم المؤرخ » وقد أعانه على ذلك قدرة بالغة فى الترجمة ، وطبيعة قوية فى البحث ، مكنته من الاحاطة بها فى سهولة ويسر

وقد رسم جرجى زيدان صورة شبابه فى مذكراته فقال عـــن دراسته :

« ارسلنى والدى الى المدرسة وانا فى الخامسة من عمرى ، عند معلم اسمه « الياس أو جرجس شفيق » قسيس عائلتنا . وكان

العلم الى ذلك الحين لا يزال محصورا فى رجال الكنيسة . واذكر اننى كنت اتعلم عنده القراءة فى المزامير ، وهو اول كتب القراءة يومئذ بعد الهجاء . فكنا نحفظ المزمور من كثرة تكراره ، وكنا نقراه ونحن لانعرفه . والقاعدة ان نقرأ بصوت عال ، وهو ماعبر عنه بالتسميع، وربما قرأ اثنان اوثلاثة معا، والمعلم جالس متربع وراء صندوقه . ورأسه يكبو على صدره من النوم ، وشخيره يخالط اصـواتنا . والفلق اداة للقصاص . ولااذكر انىذقت طعم هذهالآلة فىالمدرسة، ليس لفضيلة فى ، **ولكننى كنت كثير الخجل ، شـديد الخوف من العقاب ، احب الابتعاد عن أسباب الشحناء**

كنت أشعر بهذا الخلق منذ طفولتى . كنت ابتعد عن كل ما يغضب المعلم او يبعثه على انتهارى او ضربى

وقضيت فى تلك المدرسة سنتين على ما اظن حتى قال المعـلم لوالدى : ان جرجى قد ختم درسه وصار « يفك انحرف » فسر والدى سرورا كثيرا . ومعنى ختم القراءة ، انى صرت اعرف اقرأ المزامير جيدا . هذا صحيح ، كنت اقرأ جيدا ، ولكنى لم أكن افهم ما اقرأ

ونقلنى والدى الى مدرسة كانت فتحت حديثا فى بيروت . وفى هذه المدرسةاخذت بعضمبادىء الحساب والنحو والخط، وابتدات افهم وفتحت عينى . واغلقت المدرسة وانا فى التاسعة من عمرى (١٨٧٠) وخرجت منها وانا اعرف مبادىء الصرف والنحـو والخط والحساب وقليلا جدا من اللغة الفرنسية ... »

وقال جرجى زيدان : ان والده احتاج اليه وهو فى سن الحادية عشرة ليساعده فى « مطعمه » وكانت عبارته « تعالى يا جرجى لمساعدتى سبعة أيام أو ثمانية» فأبيتكرها، لانى كنتأحب التعليم كثيرا . ولكنىأطعته وانا اعلل النفسبالرجوع الى المدرسة ، فامتدت تلك الايام السبعة الى سبعة اعوام او ثمانية ، قضيتها فى اسواق بيروت بين عامتها ، وانا مضطر لمعاشرة احط الطبقات »

ثم سمع أن صديقا لهم هو « المعلم مسعود الطويل » « قد افتتح

مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة الغروب. فشعرت برغبة لى فى تعلم هذه اللغة ، ولااذكر أنى فعلت ذلك بدافع الطمع فى المستقبل »

كان فى الخامسة عشرة ، وكان معه خمسة عشر تلميذا ، مالبثوا أن استصعبوا درس هذه اللغة، فأخذوا ينصرفون عن المعلم. ماعداه ورفيقا واحدا اسمه « درويش صفير » وبعد خمسة شهور قال له المعلم : انك صرت تعرف الانجليزية كما أعرفها أنا ..

وقال انه جرب نفسه فى مطالعة كتاب « رحلة كوك » فى جزائر المحيط : « فرايت نفسى اقل كثيرا مما كنت اظن . فأخذت فى الدرس لنفسى . وساعدنى على اكتساب ما اكتسبته لنفسى بالمطالعة ، ونحوها انى كنت **قوى الارادة ، قوى العزيمة ، قوى البنية ، صبورا على العمل »**

ثقافته (١)

قضى جرجى زيدان ثلاث سنوات أو أربعا بعد تركه المدرسة ، لم يقرأ كتابا ولا استفاد كلمة حتى أوشك أن ينسى ماتعلمه في المدرسة. غير أن صديقه خليل الذى كان زميلا له منذ أيام الدراسة قد التقى به ، ففير سبيل حياته ، وكان «خليل» اليفا الى نفسه .. « وقد أحببته كثيرا ونظرت اليه نظر الاعتبار لما أنست فيه من الشهامة والانفة واللطف » وكانا يتواعدان على الخروج للنزهة مرة بعد الظهر الى ظهور الاشرفية أو غيرها ...

وكان شعر المتنبى هو الطائف الاول الذى ملأ نفسه

« وقد أفادنى « خليل » أنه كان يحفظ أشعارا كثيرة . ويحسبنى أحفظ شيئا ، فكان يقول البيت من شعر المتنبى أو ابن الفارض وهو معجب به . ويتوهم أنى فهمت معناه . وكان ذلك جديدا عندى . ولذ لى التفكير فى معانى الشعر ، فصرت أقرأ وافسر وازداد كل يوم رغبة فى قراءة الاشعار لأن تفهم معانيها كان يزيد رغبتى فى مطارحتها ... »

وهكذا كانت « المطارحة » أول خطواته الثقافية ... حببه الشعر فى المطالعة ، فاقتنى ديوان المتنبى وابن الفارض ، وهما رائجان فى بيروت « فقد أخذت اقرؤهما واتمعن فى معانى ما أقرؤه . فاذا وفقت لفهم بيت من الابيات الغامضة ، لذ لى ذلك كأنى فتحت بلدا أو لقيت كنزا» ولكنه ما كاد يتعلم اللغة الانجليزية حتى تحول عن هذا الاتجاه العاطفى وبدأ الطريق العلمى ...

كان طوال يومه مشغولا بالعمل فى المطعم مع والده ... فاذا جن الليل فانه لا يهجع ليريح نفسه من متاعب العمل طوال اليوم . ولكنه يفزع الى هواه الشريف فيظل يقرأ ويكتب أحيانا الى الصباح

---

(١) كل مابين الاقواس هو من عبارة جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة

« ... كنت أضيء المصباح وأجعله على الشباك بجانب سريرى ، وأقضى ساعات فى الدرس والمطالعة . وكثيرا ما تشرق الشمس وأنا جالس . ودق والدى باب غرفتى مرة . وكنت جالسا أقرأ وأكتب على سريرى فنهضت وفتحت له ، وأنا أحسبه لا يزال ساهرا ، وقد أتى ليحثنى على النوم كعادته ... فلما فتحت الباب رأيت الفجر قد لاح . فسألنى مالى أراك قد استيقظت باكرا هذا الصباح فقلت له : انى لم أنم بعد ... فغضب وأخذ ينصح لى أن أرفق بصحتى ..

وبدأ الاتجاه العلمى فى نفس جرجى زيدان فى هذا السن الباكر فى صورة تأليف قاموس للغة الانجليزية والعربية « وقد مضيت فى هذا العمل الى حرف (E) ثم مللت وحق لى أن أمل . لأنى كنت قليل المعرفة باللغة.فلما توقفت عن العمل حزنت حزنا شديدا. اذ سبق الى ذهنى انى خلقت ضعيف العزيمة ، قليل الهمة . وتشاءمت ألا أعمل عملا وأصبر عليه حتى يتم »

وكان — اذ ذاك — فى سن السادسة عشرة ...

وفى هذه الاثناء قرأ كتابا باللغة العربية كان دعامة من دعامات اتجاهه فى خدمة العربية بعد : هو « مجمع البحرين » للشيخ نصيف اليازجى . « وهو كتاب أدبى وضعه على طريقة المقامات . وكان شأنه عظيما عندى لانه ساعدنى على معرفة الفاظ لغوية أفاخر أقرانى بمعرفتها .. »

واشترى مع صديق له كتاب « العروس البديعة » لدراسة النواميس الطبيعية

وحفزته مطالعة الشعر الى محاولة النظم فكان ينظم البيت والبيتين لا يعرف وزنهما ولا اعرابهما ...

وقالت عنه والدته تصف حاله « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة »

وفى هذه الاثناء تعرف برجلين عظيمين درس أدبهما من بعد ،وكتب

عنهما وأصبح عالما مثلهما : هما ابراهيم اليازجى وبطرس البستانى

وقد سجل فى ذكرياته أنه صادق « اليازجى » واحب صحبته . « وما زلت أذكر انه غادر المطعم يوما بعد أن تغذى فيه ونسى نظارته على المائدة فلما لحقت به وقدمتها له ابتسم وقال مداعبا « نسيت عينى عندك . ولكن لا خوف عليهما لانى تركت قلبى عندكم طويلا ولم يصب بسوء »

ولعل اتجاهه الى نظم الشعر يتصل الى حد كبير بمعرفته للبستانى، فقد استفاد من أقواله فى الشعر واللغة وغيرهما، كما حفظ كثيرا من الشعر الجاهلى الذى كان يتلوه عليه

ثم اشترك فى مجلة « المقتطف » فكان يطالعها بدقة ويفخر بأنه يقتنيها ، ويحب أن يعرف الناس عنه أنه يطالعها . وهنا يحاول تجربته الاولى فى عالم الكتابة فيكتب « المقال الاول » الذى وان يكن لم ينشر الا انه فتح أمامه باب الدرس الطويل للوصول الى المنزلة التى تؤهله للنشر

« ثم أردت أن أكون ممن يكتبون فى المقتطف فكتبت مقالة بالغت فى تنقيحها وتنميقها على قدر استطاعتى . ولم أكن حتى ذلك الحين على شىء من علوم اللغة . ولكنى كتبت تلك المقالة عن احساس صادق . ونقدت فيها الآباء الذين يهملون تعليم أولادهم فى صغرهم فيشب هؤلاء الأولاد جهالا وتفوت الفرصة لتعليمهم ، وتلك كانت حالى فى ذلك الحين، فلما لم تنشر مقالتى لم أسىء الظن . بل اعتقدت انى لم أصر أهلا لنشر مقالاتى ، ولم أكتب لأى صحيفة بعد ذلك الحين الا بعد أن درست الطبيعيات ، ودخلت مدرسة الطب حيث تفقهت فى بعض فروعه »

وفى خلال هذه الفترة كانت نفسه الطموح لا تنى تؤرقه وتدفعه فى سبيل عمل كبير . كان كلما رأى الطلبة الناجحين شعر بانقباض لحرمانه من أن يكون مثلهم وكان يسأل نفسه دائما : ألا يأتى يوم يقف فيه موقف أولئك المتعلمين وبينما هو يفكر ويقدر ، وقع فى يده كتاب كان له أبعد الاثر فى اتجاهه الفكرى ومستقبله ...

« كنت قد اطلعت على كتاب «سرالنجاح» الذى نقله الى العربية الدكتور يعقوب صروف، فهاج فى نفسى النشاط والحماسة، بما سجل من تراجم بعض العظمـاء ممن بلغـوا ذروة المجد والنجاح بجدهم واجتهادهم واعتمادهم على انفسهم . وفيهم ابن الحلاق والاسكافى والصانع والخادم. وكنت كلما قرات شيئامن ذلك اهتاجت مشاعرى واستولى على الارق ولم أجد سبيلا الى النوم ، كما يتملكنى الشعور بالأسى والحزن والانقباض اذ أجد نفسى مقيدا بالاستمرار فى عملى البعيد عن العلم الذى ارغب فى تحصيله والمســتقبل الذى أتوق اليه »

وتفاعلت فى نفسه المعانى فعزم عزمته وحزم أمره . وصمم على دخول كلية الطب حيث كان له أصدقاء فيها « لاننى بعد تخرجى طبيبا اسـتطيع بمـزاولتى لمهنـة الطب ان اكسب ما أعيش به أنا واهلى ... »

ولكن كيف السـبيل ولم يبق على افتتاح السـنة الدراسـية الا شهران ، وهل تكفى هذه الفترة القصيرة لتحصيل علوم متعددة ضخمة مرهقة ، لا بد من اجادتها والامتحان فيها . واسـتغرب اصدقاؤه اقدامه على هذا العمل الخطير وقالوا له ان طالب الطب يجب أن يمضى قبل ذلك بضع سنوات لتحصيل العلوم التى تؤهله لدراسة الطب . هذا عدا وجوب تمكنه من معرفة اللغة الانجليزية وعلوم اللغة العربية ، وفى مقدمة هـذه العلوم الحسـاب والجبر والهندسة والفلسفة والطبيعة والنحو والصرف والبيان

وقالوا له لا بد من عامين على الاقل ليسـتطيع دخـول الطب . ولكنه اختزل العامين فى شهرين والارادة — كما يقول هو — تحقق المستحيل . وعجب الذين يعرفونه لهـذا الجلد العجيب والعـزمة القوية . وكاد هو فعلا أن يتراجع لولا ايمانه بنفسه « هالنى الأمر مرة أخرى . وكدت أنثنى عن عزمى فى هـذه المـرة لولا أننى كنت كبير الثقة بنفسى فيما تحتاج اليه من صبر واجتهاد ... »

وحين اعترضته مصاريف الدراسة قالت له والدته الحانية ...

« القسط الأول سبع ليرات عثمانية ... عندى هذا المبلغ . وقد ادخرته منذ حين وسأعطيك اياه ... »

ودخل جرجى زيدان كلية الطب عام ١٨٨١ ، وبذلك حقق أملا كبيرا ظل يراود نفسه عشر سنين

وفى خلال العامين اللذين قضاهما بها كان فذا فى التهامه العلوم الرياضية والطبيعة، وتلك ظاهرة أخرى فى شخصية جرجى زيدان. فالشاب الذى تعلم اللغة الانجليزية فى شهور ستة ، راح بعدها يلتهم الكتب والمجلدات والقواميس ، ويدفعه طموحه الى أن ينشىء قاموسا كاملا ... يتجه مرة أخرى الى العلوم العسيرة فى كلية الطب بنفس الروح والقوة والثقة بالنفس

فهو يحب الطبيعيات والرياضيات حبا كبيرا ، وشغف بها شغفا عظيما

« احببت مبادىء الكيمياء ... ولذت لى لذة عظيمة .. ولا زلت أعتقد أن الكيمياء ألذ العلوم وانفعها . وكنت منذ أخذت فى دراسة العلوم ، كلما درست علما أحسبه الذ سائر العلوم . هكذا شأنى فى الطبيعيات والرياضيات ، فلما درست الفسيولوجيا والاقرباذين رأيتهما ألذ العلوم ...

... الا الكيمياء فما زلت اعتقد الى الآن أنها ألذها جميعا لأن الانسان يرى العالم بها غير ما كان يراه من قبل ... »

وليس أدل على أصالة المزاج العلمى فيه من قوله انه وجد فى دراسة النبات لذة ، وخصوصا فى فسيولوجيته وتشريحه لما فيه من النظام والحكمة : وتلك طبيعة العلماء ولا شك

***

وفى كلية الطب ماذا فعل الشاب الطموح الفقير : لقد كان أول ما شغله هو تدبير المال ... فمضى يشتغل أشغالا أخرى يستعين بها على دفع ثمن الكتب والأقساط

ولكنه كان فى ذات نفسه عزوفا عن زملائه الطلاب . يرى نفسه غريبا عنهم . وهو بطبيعته المنطوية يحس احساسا جديدا .. « ومع

فرحي بدخول المدرسة كنت أراني غريبا فيها ، كأني لبست ثوبا فصل لسواي . فلهم والدون يحملون عنهم أعباء الأقساط وسائر النفقات . وأنا وحدي مضطر الى الشغل للقيام بذلك . وكان صفي مؤلفا من تسعة تلامذة كان نظري اليهم مثل نظري لسائر التلاميذ . وحملني خجلي ووثوبي تلك الوثبة الكبيرة من السوق الى المدرسة الكلية على تجنب الاختلاط بهم فعدوا ذلك مني كبرياء » ..

ثم انصرف عن نفسه هذا الشعور بعد قليل ، واندمج مع زملائه الذين بهرهم تقدمه ونبوغه ، وتأثرت نفس جرجي زيدان عندما رأى أول جثة في كلية الطب « ولا انسى ساعة فتحوا التابوت . وقد تغطت الجثة بالازهار . وفاحت رائحة العنبر لكثرة اوراقه وازهاره، ووقع نظري على جثة ذلك الغلام فأثر منظره في نفسي فما زلت حتى اليوم كلما شممت رائحة العنبر تصورت الجثة أمامي .. »

وتعلم جرجي زيدان اللغة اللاتينية . التي تولى دراستها له الدكتور فارس نمر .. ووجد صعوبة في درسها لاول مرة ، ولكنه حصل في امتحانه على درجة كبيرة (٩٩ من مائة) . « وهذا نادر وقوعه خاصة في اللاتينية » . ثم نال الامتياز في الكيمياء التحليلية

ذلك لانه كما يقول عن نفسه « كنت اتعلم تلذذا بالعلم لا طوعا لاشارة والدي أو ولي أمري . فكنت أفهم ما أدرسه جيدا .. »

ويضيف جرجي زيدان مهرجان الشهادات في نهاية العام .. «كنت جالسا في مؤخر القاعة فلما بدأوا بتوزيع شهادات الامتياز — لمن أحرزوا قصب السبق في الفنون التي يدرسونها — رأيت تلاميذ الدائرة العلمية وبعض الرفاق يولون وجوههم نحوي ويضحكون. الى ان وقف الدكتور لويس وبيده شهادة ونادى باسمي واني نلت الامتياز في (الكيمياء التحليلية) فلم أر بدا من التقدم لتناولها فخشيت وقد غلبني الخجل — والناس يصفقون وخصوصا التلاميذ كأنهم فرحون بفوزهم . فوصلت الى الدكتور وتناولت الشهادة ورجعت ، والتصفيق متواصل وانا انظر الى الارض خجلا فسمعت بعضهم

يقول « لا ترجع . انتظر الشهادة الاخرى .. فلم أبال . فما وصلت الى مكانى حتى سمعت الاستاذ بورتر ينادى باسمى وانى نلت الامتياز فى (اللغة اللاتينية) فرجعت والتصفيق ما يزال متواصلا فتناولتها وعدت وانا أكاد أذوب من الخجل ولكن قلبى كان يرقص فرحا .. »

ولكن جرجى زيدان لم يستمر أكثر من عامين فى كلية الطب ، فقد حدث أول اضراب فى سبيل حرية الرأى ، وكان له هو زعامة هذا الاضراب . ثم اغلقت المدرسة بعد أن حصل على أجازة الصيدلة . وقد وصفه المترجم له فى مذكراته وصفا مطولا يختصره فى هذه العبارات :

حادث الاضراب فى الكلية الامريكية من أجل حرية الفكر يعد الحادث الاول من نوعه فى الشرق . فقد كان لاخراج احد الاساتذة من الكلية وقع أليم فى نفوس جميع طلبتها . فاجتمعت كلمتهم على الاحتجاج عليه . وشاركهم فى ذلك كثيرون وانقطع الطلبة عن الكلية وألفوا لجنة لتقديم احتجاج الى المجلس الاعلى للكلية فى أمريكا ،وطلبوا اعادة الدكتور لويس لعدم صحة التهم التى أسندت اليه ولعدم وجود من يحل محله فى تدريس الكيمياء فى الكلية . والتجأت الكلية الى تهديد الطلبة . وابدى الطلبة ثباتا عجيبا فى موقفهم فانقطعوا جميعا عن الدروس وكتبوا اليها محتجين . وأرسلت الكلية الى « جرجى زيدان » وهى تعلم أنه يلقى مشقة فى سبيل الحصول على نفقات الدراسة — من يقول له أنها تعرض استعدادها لعدم مطالبته بالمصروفات المدرسية اذا هو عاد الى الكلية . فكان جوابه الرفض القاطع . وهنا قررت الكلية فصل الطلاب الذين وقعوا على الشكوى وقرار الاضراب

وهذا الموقف يكشف عن جانب آخر من نفسية جرجى زيدان . فهو الشاب الفقير الكادح فى سبيل اتمام دراسته . يتزعم ثورة من أجل حرية الرأى ، ولايقبل التراجع أمام الوعيد أو الاغراء ولا يبالى فى سبيل الحق الذى يعتقده أى نتيجة ، ولقد كانت هذه

الازمة بعيدة الاثر بالنسبة له . « شعرت بانقطاع حبل الامل وبان جهودى ذهبت سدى »

ولكنه حاول محاولة اخرى . فقد تلقى خطابا من وكيل مدرسة الطب « القصر العينى » بالقاهرة يبدى استعداده لقبول طلبة الكلية الامريكية فى صفوفها بعد امتحانهم ، وبذلك اعتزم السفر الى القاهرة لدراسة الطب بها

ولم يكن يملك نفقات السفر ، ولايدرى كيف يحصل عليها او يحصل على نفقات تعليمه فى القاهرة ، «ولكن جارا قديما لناهو المعلم مصباح المحمصانى علم بالامر ، فاستدرجنى فأعطانى ستة جنيهات ،وأبدى استعداده لاعطائى اكثر . فأخذتها شاكرا وضممتها الى ماكان معى من مال يسير . وقد رددتها بعد سنة من وصولى الى مصر وعملى بها . . »

وهذا جانب آخر من نفسية جرجى زيدان يصور الوفاء والاداء

ووصل جرجى زيدان الى القاهرة يريد شيئا . وأراد القدر شيئا آخر فقد اخفقت مساعيه فى الالتحاق بكلية الطب فاتجه اتجاها جديدا

شخصيته

ان « شخصية » جرجى زيدان باهرة ولاشك لكل من يحاول أن يدرسها ويتعمق جوانبها ، انها شخصية العصامى الموهوب ، القوى العارضة ، العميق الايمان بنفسه ، القادر على الصمود فى وجه الاحداث ، الدءوب الصارم الذى لا تفتنه المظاهر ولا يخدعه البريق ولا يعشى عينيه الضياء اللامع . الرجل الذى كان فى شبابه شيخا، وفى شيخوخته شابا . غلب عليه العقل ، وعرف الاناة والروية والصبر . انه الخجول الحيى الذى لا يغشى مجالس اللهو وهو فى نفس الوقت الجرىء المؤمن بالشجاعة الادبية . الذى يقول الحق دون أن يخاف . والذى يعترف بالخطأ ، ويؤمن بالسلام والبساطة ، ويواجه الامور مواجهة العلم والواقعية

كون نفسه بنفسه ، وبنى عقله وفكره وثقافته بجهده ، حتى بلغ ذروة الحكمة والعلم ووقف فى صف قادة الفكر فى العربية . لم يكن له من عون على هذا العمل الضخم الا ارادة قوية ، وعزيمة صادقة، فقد كان فى أعماقه طبع الراهب العزوف عن مطامع الدنيا وترفها ومادتها وزخرفها ، المؤمن بفنه وفكره ، المتوفر عليه ، الدائب فى تعميقه وتجويده

ان شخصية جرجى زيدان تظهر واضحة من مصدرين :

أولهما : مذكراته التى تركها ونشرت عام ١٩٥٥ فى الهلال وتحدث فيها عن نفسه بصراحة بالغة . هذه الصراحة وحدها تكشف عن شخصيته ، وعن رجولته ، وقوة نفسه ، التى جعلته لا يخجل من أن يعترف بالفقر والحاجة . وقد كان يستطيع أن يغض الطرف عن هذا الجانب ويتجاهله لولا ايمانه وصراحته وثقته

يقول : « نشأت فى صباى وانا ارى والدى يخرج الى دكانه مع الفجر ولا يعود الا نحو نصف الليل أو قبيله . وارى والدتى لاتهدأ

لحظة من الصباح الى المساء . ولا تعرف الزيارات ولا الاحتفالات. ولا المجتمعات ، حتى الدينية ، فشببت على ذلك وألفته . فغرس ذلك فى ذهنى أن الانسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير »

هذه هى اللمحة الاولى فى شخصية جرجى زيدان

وفى المدرسة كان ــ كما صور نفسه ــ : كثير الخجل ، شديد الخوف من العقاب ، يحب الابتعاد عن أسباب الشحناء . وتلك صفة قد توافرت فى جميع النوابغ والاعلام ، اذ كانوا كذلك عزوفين عن المجتمعات ، بعيدين عن مواطن الصراع

يقول جرجى زيدان :

« خالفت سائر التلاميذ من حيث اللعب ، لانى لم اكن ميالا للهو مطلقا ، وكنت أعد ذلك نقصا فى . فلم أكن أطير الطيارة ولا العب بالطابة (الكورة) وبالكلة (البلية) الا نادرا . وقد اقف للفرجة أو أرافق التلامذة اذا خرجوا لتطيير طيارة ضخمة ، كان يجتمع اليها أبناء الحى فأتبعهم وأنا معجب بمهارتهم فى صنع الطيارة أو تطييرها .. »

هذه لمحة اخرى من طابع نفسية جرجى زيدان

واللمحة الثالثة : عندما انتزع من المدرسة الى العمل مع والده فى السوق ، يقول :

« كنت أتجنب عشرة أهالى ساحة البرج لانى لم اكن أملك من وقتى فراغا للهو ولم يكن من طبعى »

وكان يحب من الملاهى سماع القصص ، كان شغوفا بذلك أشد الشغف :

« فكنت اذا رأيت القصاص «الحكواتى» يمشى ذهابا وايابا ، يتلو قصة عنتر أو الزير سالم أو غيرها ، والناس جلوس يصفقون له وهو يمثل مواقف الحديث باشارته وصوته ، كنت انسى موقفى وأصغى بجميع حواسى ...

« وكان « الحكواتى » يروى على الدوام القصص الاربعة المشهورة يومئذ وهى : فيروز شاه . عنتر . الزير سالم . على الزيبقى

« فاذا فرغت سنة عاد الى أولها فسمعتها غير مرة ولا أعترض على سماعها ولا أشكو من الوقت الذى أضعته فيها .. »

وفى الوقت الذى كان يحب هذا اللون من اللهو البرىء ، كان يكره « كراكوز » ويصفه بأنه « تمثيل بذىء كله فحش وسوء أدب »

ولمحة رابعة كونت شخصية جرجى زيدان : هى حبـــه لاهل الشجاعة والحماسة :

« كان يطربنى من احاديث ذلك الدور ، ما كان يجرى بين طائفة من أهل البطالة ، اذ يفاخرون بالشجاعة ، فيزعم أحدهم انه لقى جماعة فهزمهم . أو أنه دخل مكانا مظلما ، ورأى فيه العفـاريت فطردهم ، وكانت هذه الاحاديث تلذ لى وتثير فى الحماسة لتقليد الشجعان وأهل المروءة .. »

وكان فى هذه الفترة ـ فترة التكوين النفسى ـ يكره الخمـــر والميسر .. ويوازن بين طابعه النفسى وبين استعداد هذا الفريق من الشباب فيرى البون شاسعا :

« كان تقصيرى عن مجاراة أولئك الشبان فى التفاخر والطـرب والشرب وانا فى نفس الوقت أحب العلا وأطلب الشهرة ، فرايت مقامى بين هؤلاء كالدجاجة الغريبة .. »

***

ويصل جرجى زيدان الى سن السادسة عشرة ... وهنا يبدأ فى التفكير ، فى الانتقال من طور الى آخر .. وقد بدأت شخصيته تستحصد وتقوى ويطبعها الاستقلال والتحرر :

« اكتسبت شيئا من استقلال الفكر ، فخرجت من دائرةالانقياد الاعمى وصرت أعتد بما يكون لى من رأى خاص . وان خالف آراء من حولى . ونما ذلك تدريجيا حتى صرت انتقد آراء الآخرين أو أعمالهم ، وأحرص على صون كرامتى الشـخصية واغالى فى ذلك

كثيرا . كما ادافع عن رايى ولا اقبل رايا غيره الا بعد بحث واقتناع ... وكان لهذا أثره فى اتجاهى العملى فى الحياة ، فجعلت نصب عينى أن أحافظ على نقاء سريرتى . وان اتجنب الكلام البذىء ، ومعاشرة غير الادباء . وامسكت عن المزاح امساكا تاما ، فغلب الجد على أقوالى وأعمالى . وبالغت فى الابتعاد عن مواطن الشبهات حتى أصبحت لا أرفع عينى الى وجه امراة ، ولا أمر بشارع فيه بيت يخوض الناس فى سيرة أحد ساكنيه »

ومن هذه اللمحات النفسية تبرز شخصية جرجى زيدان ، وهى تأخذ طابعها الذى عرفت به بعد . هذه النفس المفطومة عن الاهواء ، القادرة على كبح جماح شهواتها واهوائها فى هذه السن الخطيرة : سن المراهقة

وقد ادى ذلك الى النتيجة الطيبة :

« لا أخشى ان أصرح بأنى قضيت ثمانى سنوات فى ذلك الوسط الخطر ، ثم خرجت منه طاهر الذيل نقى الازار . ولا انكر انى أوشكت أن أقع فى الخطر غير مرة ، ولكن سرعان ماكنت أمسك نفسى وأواصل طريقى وفقا لخطتى الى ان صار ذلك من فطرتى .. »

وهذا هو مفتاح نجاح جرجى زيدان فى حياته كلها . وهذا هو سر انتصاره الساحق وارتفاعه فوق زمنه . وفوق الاحداث ، وفوق الاوضاع الطبيعية التى كانت تسير حياته فى نطاقها

وقد بقى جرجى زيدان الى آخر حياته ، ليس له من نزوات أو صبوات الا لذاته الفكرية وأهواؤه الثقافية

هذا الطابع النفسى هو الذى كسب له انصاراته المتوالية : تفوقه على أقرانه فى كلية الطب ، تعلمه اللغة الانجليزية فى شهور . حصوله على ٩٩ من مائة فى اللاتينية . سهره حتى الصباح يقرأ ويكتب بعد يوم شاق من العمل المتصل فى محل والده .. كل هذا لا يتأتى الا من طبيعة فيها هذا الفطام عن الشهوات . هذا الفطام نفسه الذى اعطى جسمه القوة ، وصحته العافية ، وامده بالعقل المستنير المشرق والقلب المتدفق ، والعلم الصافى النقى

ولعمرى كم كانت الاهواء سببا فى سحق عبقريات مشرقة ، وتحطيم نفسيات عامرة بالخير ، لو تلفت أصحابها اليها وعملوا على حمايتها لكانوا صفا من صفوف الناجحين فى محيط الفكر أو الاختــراع أو الفنون

وكان جرجى زيدان ذا ارادة صارمة وهو الذى يقول : ان الارادة تحقق المستحيل

هذه الارادة التى دفعته لان يتم دراسة عامين فى شهرين ، ويختزل العمر فى لحظات فيقفز من الشارع الى كلية الطب ، حتى هو نفسه أذهله هذا الانتصار ، وملأ نفسه توجسا ، جعله ينطوى عن اترابه فترة من الزمن

***

هذه هى ملامح الصورة النفسية لشخصية جرجى زيدان ، كما ترسمها مذكراته التى كتبها عن حياته فى الفترة الاولى منها . وهى تصوره فى مستهل العقد الثالث من عمره . فهل تغيرت شخصيته بعد أن هاجر الى القاهرة ، وذهب الى السودان ، وعاد الى بيروت، ثم جاء الى القــاهرة مرة أخرى فاستقر بها يعمل فى المقتطف ، ثم يصدر الهلال ؟...

ان أمامنا ملامح نفسيته وصورة شخصيته ، كما صورها عدد من أقرانه وتلاميذه الذين التقوا به وعاشروه ، أبان هذه الفترة بعد أن تقدمت به السن

يقول الاستاذ الزيات :

« كشف لى لقاؤه الجميل ، وحديثه العف ، واطلاعه الواسع ، وتواضعه الجم ، عن طراز من العلمــاء فريد ، لم ألق مثله فيمن لقيت من العلماء فى الازهر ودار العلوم والجامعة

«والحق أن جرجى زيدان مدين بعلمه وفضله ونجاحه لاخلاقه . وأشد أخلاقه أثرا فى حياته : صدقه ، وجده ، ومثابرته . تخرج فى اكثر العلوم على نفسه ، وشق طريقه فى الصخر بسن قلمــه ، واختار لجهاده الادبى الميدان البكر ، وأعد له ما استطاع من قوة

الصبر وصدق العزيمة ، فانتصرانتصارا عز على غيره ، وعادبالنفع والخير على قومه »

ويقول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى «كان مستقيما فى عمله ، أمينا فى علائقه لايكذب ولايتلون ولا يخيس بعهده ولاينكث بوعده، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها فى عيونهم . يتعلم منه العاملون أن الكذب فى المعاملة ليس شرطا من شروط الربح ، ولاسببا من أسباب النجاح . وكان واسع الصدر فسيح رقعة الحلم .. فاذا تم لهذه الامة ، فى مستقبل حياتها ، حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد فى جميع شئونها واغراضها ، فلنذكر أنجرجى زيدان أحد الذين اسسوا فى أرضها هذه الدولة الفاضلة : دولة الادب والخلق »

وهذا صديقه فى جميع أدوار حياته وزميله فى أيام الدراسة « سليم سركيس » يصف شمائله « .. عرفناه أيام كان طالب علم فى المدرسة الكلية ، الى ثورة عقلاء الطلبة ، الى قدومه الى القاهرة ، ففى جميع أدوار حياته كان صديقا يروق ويصفو ان كدر الناس عليه . وعرفته الامة العربية فى مشارق الارض ومغاربها نزيه القلم عفيف اللسان ، فىخمسة وعشرين عاما قضاها بينالمحابر والاوراق، كان فيها مثلا للمبدأ الشريف « مناظرك نظيرك »

كان صادقا فى صداقته لذويهواصدقائه ومعارفه ،فهوعلىالاطلاق الصحافى الوحيد الذى عاش فى شرقنا وليس له عدو . وأعلم علم اليقين أنه كان مستشارا لعشرات من الذين كانت مشوراته الصادقة سببا لنجاحهم المالى فى التجارة والصحافة : على انه أخطأ فى وجهة واحدة فقط ، هو أنه كان صديقا للجميع ، ثمكان عدوا لنفسه فلم يشفق على جسمه ولا رحم قواه ، فظلم نفسه وذهب شهيد عمله الشاق .. »

ووصف نفسيته صديقه نعوم شقير فقال « من أروع خلق الفقيد حب الاستقلال،وأحب خلق اليه الصدق . يكره التظاهر والمباهاة ويبعد عن الخصام ، عاشثلاثة وخمسين عاما . عرفته فى كلية

بيروت الامريكية ثم فى مصر . وكنتله جارا وصديقا ، فما اعلم انه فى حياته كلها تقاضى أحدا ، أو نازع أحدا او كدر صفاء انسان . بل كان يسالم جميع الناس وما حسد أحدا على نعمة ولا حقـــد على أحد »

ويصل صديقه خليل مطران فى تصوير شخصيته الى أبعد مدى من الفهم والعمق « .. ما عرفت رجلا أجمع منه للنقيضين ــ الكبر والاتضاع ــ منه . مالم أشهدهولم أسمع عنه أنهشكا دنياه بمحضر من أحد ولا أنه تمنى على أحد شيئا باشارة او بمصارحة . كما اننى لم اجده مرة مستفزا للاخذ بثاره ممن تهجم عليه فى الصناعةالتىهى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته وسلامة صـــنيعه من شبهة المشتبهين

فاذا نوقش فى محادثة واتفق أن أخذته الحدة علا صوته فأسمعك عثرات الماء الصافى بحصباء العقيق فاذا دفعته فى بحث مما هـــو عارف به فاندفع أشبع وأروى ولم يدع فى النفس حاجة

أما آدابه فمما راعنى منها أنه وازنها وهيأها بحيث ترضى الامير وتقرب الصديق وتعجب الغريب من غير تكلف حركةخصيصةلموقف من المواقف . وعلى هذا كان يعرض لى أن أقول ان فى زيدان جمودا من جهة الملاقاة لا أحب عليه ليونة غيره مهما رقت وراقت

كان لا يلقى الا باشا ، وانما كانت بشاشته تلك أشف ظواهره البسيطة الرائعة من عفتــه المطوية وشـــممه الخفى : ذلك أنه اختط خطتين : خطة عين لنفسه منتهاها عن طريق العقل · وخطة رســـم لنفسه صراطها من جانب الخلق

الكساء والطعام والرياشأغراض فىنظره لايعتد بها ، ومن الاعتدال فيها كان يدخر ما يصون ماء وجهه ، فأيما حاله صار منالنعمة نهض الى مستواها ولكن مع ترك فضل للدخل على الخرج ، فبذلك الحطام اليسير المتبقى بين يديه كان يتقى ضياع وقته ويصـــون مادة عفتــه وجوهر شممه · ومن ذلك الزائد الزهيد كان يقتنى تلك البشاشة

الدائمة التى لا يحولها اغبرار الحوادث ، ولاتشوبها كدورة الايام ولا يتخللها اصفرار الطلب .. »

والحق أن هذه الصورة التى رسمها « خليل‌مطرآن » بالغة الخطورة فى تصوير شخصية هذا الرجل العظيم • انها تعطينا لمحة من‌روحه المتصوفة ، ونفسه الزاهدة المنصرفة عن الزخرف والترف ، متعاليا بهذا العفاف عن التماس الوقوف على باب‌عظيم أو منافقة كبير وهى شمال من شمائل السمو عزت فى الرجال ، وكانت غريبة أشد الغرابة بالنسبة للعاملين فى الصحافة والادب فى هذا الوقت الباكر الذى كان فيه الادباء والصحفيون يعيشون على صداقات الامراء والاعيان • وكانت الاقلام عالة على بعض الجهات

هذا الشمم وهذا الكبرياء النفسى القائم على‌العفة والخلق‌والتسامى عن الماديات ، يعطى صورة باهرة لهذا الرجل الذى آمن بقلمه ورسالته ، وتحرر من أن يكون أجيرا أو صنيعة لأحد أو جهة

***

وهكذا ترسم هذه الاقلام التى عاشرت جرجى زيدان وعرفته ، صورة واضحة تعد آمتدادا طبيعيا لصورة شباب جرجى زيدان • وهى فى مجموعها صورة شخصية انسان كبير على الصغائر والمطامع والاهواء • متواضع للناس•حريص على‌السلامة ، عازف عن‌الخصومة• طبعه كالغدير الرقراق • وقلمه يقطر الحكمة • ونفسه فيها صفاء الدعاة والزهاد . وهو بعد هذا عبقرى العقل . فيه جلد العلماء . وصبرهم على البحث والمراجعة والاستقصاء • ومن هذه البساطة والعزوف والجلد بنى ذلك الهرم الضخم من المؤلفات والآثار

اسلوبه ومنهبه الأدبى

تعطى مؤلفات جرجى زيدان وسجله الخالد «الهلال» صورة متكاملة واضحة المعالم لمذهبه الادبى .. تعطى صورة « المعلم » الذى يتخذ من أدواته الثلاث : « الصحافة » ـ « التاريخ » ـ « الادب » ، وسائل الى غايته . غايته الكبرى التى هى التثقيف والتعليم وتكوين جيل واع فاهم متعمق

وقد كان من الطبيعى للرجل الذى نصب نفسه لهـذه المهمة ، أن يتخذ لها عدتها من المراجعة، والبحث والمقارنة المستفيضة، لاستخلاص الروايات الصحيحة المجمع عليها . يبدو هـذا واضـحا بالمقارنة بين مؤلفاته وبين التأليف فى تاريخ الادب العربى والتاريخ الاسلامى قبله

فقد أدخل الى هذه الدراسات عنصر التحقيـق العلمى . وعنصر البحث الخالص المجرد من عاطفـة الهوى والحب والمغـالاة لتاريخنـا الاسلامى وأدبنا وتراثنا . هــذه المغالاة التى كانت تفرض علينـا « تقديس » تاريخنـا وآثارنا وتحول بيننا وبين الـكشف عن أوجه الضعف وأوجه القوة

وكان ذلك هو مـذهب جرجى زيدان الادبى . انه الرجـل الذى استطاع أن يقتحم هذا الحائط الضخم دون أن يخشى حملات الرجعيين والتقليديين عليه . فلما هبت عليه الحملة واجهها باسـما عف القلم واللسان ، لم يسرف فى الرد أو الجدل . ولم يذهب مذهب ناقديه فى الهجاء أو الاقذاع . بل كان عف القلم . متماسك الاعصـاب . حريصا على طابع العلماء الذين يعرفون هدفهم ، ويعرفون حق قلمهم وشرف رسالتهم

ولقد أحب جرجى زيدان « النقد » وأفاد منه ورفعه فوق التقريظ درجات . وصمد فى ميدان النقد صمودا قويا . فيه ايمانه بحقه . وفيه ثقته بأن الزمن كفيل بأن ينصفه . وقد بلغ فى ذلك أقصى ماكان يريد . فقد تبخرت الانتقادات التى وجهت اليه وذهبت جفـاء كما

يذهب الزبد وبقى هو : بقى عمله الادبى قويا حيا ..

وقد صـور هـذه المعـانى فى مقدمة كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ..

« .. لاجدال فى ان الانتقاد اكثر فائدة من التقريظ . وقد يتبادر الى الاذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها ، أو يذهب بفضـل أصحابها وهو خلاف الواقع ، واذا رأينا له مثل هذا التأثير أحيانا فلأن الكتاب المنتقد لم يكن يستحق عنـاية المنتقدين ، ولو ترك بلا انتقاد لسكان أسرع الى السقوط ، أما الكتب الهامة فانهـا تزداد بالانتقاد شيوعا ورواجا ويزداد أصحابها رسوخا فى عالم الشهرة ، فالانتقادمفيد للكتابوصاحبه وقارئه. ولذلك رايتكبارالمؤلفينفىأوربا اذا ظهر لاحدهم كتاب لم ينتقده الادباء عدوا ذلك اهانة له »

وعندما عرض جرجىزيدان لدراسةتاريخ الاسلام وجد خصومة من المسلمين والمسيحيين على السواء ، لم يرض احدامنهم ولكنهكان يؤمن بهدفه ويعرف طريقه ولذلك صم اذنيه عن النقد مادام ليس موضوعيا ومضى فى عمله الى النهاية

« تصدينا للكتابة فى تاريخ الاسلام والقراء لم يتعودوه والمسلمون معجبون بتاريخهم وغير المسلمين لايعرفون عنالاسلام الا ماوصلهم عن مطاعن الاجيال المظلمة فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفا . غضب بعض المسيحيين لاننا على زعمهم بالغنا فى ذكر فضائلالاسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمروق من النصرانية

وقال بعض المسلمين اننا قصرنا فى ذكر فضائل الاسلام . ولم يزدنا هذا الا ثباتا ونشاطا لاعتقادنا اننا على هدى فالفنـا منها على أساليب احرزت اقبال العامة ورضا الخاصة فطبعت مؤلفاتنا مثنى وثلاث ورباع ونقلت الىمعظم اللغاتالشرقية. وأهم اللغاتالافرنجية فترجم بعضها أوكلها الى الفارسية والهندستانية والتركية العثمانية والتركية الازربيجانية واللغةالفرنسية والانجليزية والبرتغالية عدا الترجمات التى لم تنشر بعد فى الروسية والالمانية

.. لا نقول هذا للتفاخر فاننا ابعدالناسعن التنويهبأعمالنا وانما نقوله رغم ارادتنا وتقريرا للحقيقة

ومن الاسف أن من بين منتقدينا من ينتقد للتشفى أو التشهير لمنافسة أو نحوها ممــا يضعف عزائم المؤلفين . ونعرف عشرات من الـكتاب الناشئين لولا خوفهم من الانتقاد الجارح لثابروا على الكتابة فاستفادوا وأفادوا . وكثيرا مايفخر المنتقد بما يستخرجه من الخطأ »

ثم يصور جرجى زيدان ما لاقيه فى ميدان النقد فيقول :

« لانظن كاتبا من كتاب العصر لاقى مالاقيناه من الانتقاد فى أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة . وكنا أول أمرنا نعنى بالانتقادات ونرد عليها ونبين التحامل كما فعلنا فى « رد رنان على نبش الهذيان » ورددنا فى المؤيد على انتقاد الجزء الاول من التمدن الاسلامى ولم يكن يصح من الاغلاط التى يحاسبوننا عليها واحد من العشرة أو العشرين . ثم تكاثرت واجباتنا وضاق وقتنا فعزمنا على السكوت والاقتصار على النظر فى الانتقاد فاذا وجدنا فيه اصلاحا حقيقيــا أدخلناه وأغضينا عن سواه بلامناقشة لان الاخذ والرد فى هذه الحالة لا يأتى بثمرة لتمسك المنتقد برأيه والدفاع عنه بكل جوارحـــه . فالاولى من قضاء الوقت فى الجدال نقضيه فى التأليف المفيد فجعلنا جوابنا على الانتقاد المثابرة على العمل فى خدمة تاريخ الاسلام وآداب اللغة »

وقد أشـــار جرجى زيدان الى أنه من الخطـأ أن يحكم الكاتب بتخطئة مخالفه فى الرأى ، وقد يكون لمخالفه وجه آخر ، وأنه نظر فى المسألة من جهة أخرى

كما انه حرص على الاستفادة بما وجه اليه من نقد وقد سجل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية لكتاب التمدن الاسلامى «ونظرنا فى ماوصل الينا من انتقادات المنتقدين أوملاحظات الملاحظين مما تنشر فى الصحف والكتب أوجاءنا فى الكتب الخصوصية وتدبرناها كلها باخلاص وروية، فأصــلحنا ماصح عندنا واغفلنــا الباقى وهو الاكثر وانمــا توهم المنتقدون خطأ لانهم نظروا فيه من وجه غير الذى نظرنا فيه نحن ، أو اننا اطلعنا عليه فى مصادر لم يطلعوا عليها فاكتفينا فى هذه الحال بذكر المصدر الذى عولنا عليه فى ذيل الصفحة (١) »

---

(١) كانت هذه المساجلات الادبية بين جرجى زيدان ونقاده عام ١٩٠٠ وما بعدها

وكان مذهب جرجى زيدان الادبى يقتضيه ان يكتب فى اسلوب بسيط سهل ، يصل الى جميع العقول والقلوب والاذهان دون عناء ويحتفظ فى نفس الوقت بتماسكه اللغوى، ومستواه العلمى ، فهو يكره البلاغة المعقدة ، والتقعر اللفظى ، والاغراب فى البيان

وهذا ميدان آخر من ميادين العمل الادبى الذى اقتحمه جرجى زيدان وبلغ فيه غاية المدى ، فهو الذى ابتكر فى الادب الحديث « الاسلوب التلغرافى » القصير الواضح السليم الذى يؤدى المعنى بأقل عدد من الالفاظ

وهو يصور هذا المعنى فيقول : «ان الابحاث الادبية تفتقر فى تأديتها الى اعمال الفكر من حيث ترتيبها وسبكها فى عبارة سهلة سالمة من الركاكة والتعقيد وهذا فى نظرنا هو الاسلوب العصرى الذى يجب على كل كاتب أن يحتذيه ، وهو شائع اليوم على اقلام الكتاب لايشذ عليه الا المتفانون فى المحافظة على القديم الذين يحسبون اللغة وقفا لايحل بيعه أوالتصرف فيه وفاتهم أنها من قبل الاحياء الخاضعة لناموس الارتقاء يتغير بتغير أحوال الاجتماع من البداوة أو الحضارة . فتنمو بتولد الالفاظ الجديدة للمعانى الجديدة والتراكيب العصرية للافكار العصرية . وتذهب الالفاظ القديمة بذهاب معانيها كالاعضاء المهملة فى الجسم الحى تقضى الطبيعة بانقراضها ليقوم سواها مقامها . او هى كالخلايا التى تندثر بالعمل الحيوى فتخلفها الخلايا الجديدة النامية فالتعبير الذى يصيب الألفاظ والاساليب باختلاف الاعصر دليل على احياء اللغة . ومن وقف فى سبيل هذا التفكير فقد عارض الطبيعة . . »

فاذا مضينا ندرس مدى فهمه للتأليف وجدنا مذهبه واضحا صريحا يكشف عنه فى كلمات قليلة « خدمة الامة وارشادها » . فلهذا الهدف عمل ومن اجله اقذى عينيه تحت اضواء المصابيح الليالى الطويلة ليخرج هذه الآثار التى ما تزال تقف كالمنارات بعد اكثر من اربعين عاما لتهدى كل باحث فى ميدانها وهو يفهم رسالة الكاتب فهما دقيقا عميقا :

يقول « من تصدى للكتابة والتأليف فقد جعل نفسه خادما للمصلحة العامة الا من يحصر كتابته فى شئون خصوصية او يعالج علما يلذ له ولا يهمه سواه او يتعاطى الكتابة لاغراض معينة او يكون

مرماه من التأليف بيان قدرته على الانشاء والغوص على المعانى العويصة والالفاظ العربية بتقليد الاساليب القديمة التماسا لاعجاب العلماء مما يشق فهمه على جمهور القراء فهؤلاء وامثالهم يكتبون لأنفسهم او لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل ولكن فى غير الخدمة العامة . واذا لم يصادفوا اقبالا من الجمهور اتهموه بالجهل وهددوه بالاعراض والتقاعد عن الكتابة . مع انه لم يشعر بوجودهم لانهم لم يخاطبوه بلسانه . اما الكاتب العمومى فانهخادم الامة وولى ارشادها . وعليه ان يبذل الجهد فى سبيل مصلحتها ولا بد له فى تأليفه من ثلاثة شروط

١ ـ اختيار الموضوع الذى يرى الامة فى حاجة اليه

٢ ـ ان يسبكه فى قالب يسهل تناوله

٣ ـ ان يتوخى صدق اللهجة والصراحة بلا انحياز الى طائفة او حزب

والكتاب يتفاوتون قدرة على القيام بأحد هذه الشروط او كلها بتفاوت احكامهم على النافع والضار من المواضيع وتباين قدرتهم على ايضاح افكارهم . ويصعب ذلك على الخصوص فى المواضيع الادبية كالتاريخ والاجتماع والاخلاق ونحوها .. »

ويرى جرجى زيدان « ان صدق اللهجة والصراحة فى القول والخلو من الغرض » هى اهم واجبات الكاتب ... « لكنها من اصعب الشروط عليه اذ لا يسهل على الانسان ان يجرد نفسه من الروابط الدينية والاجتماعية التى تتجاذبه . وقد رضعهما مع اللبن وتمكنت من خاطره بتوالى الاعوام . وانما يقوى على مغالبتها قوى الارادة عالى التربية . وقد يتطرف المتعصب لأمته او طائفته حتى لا يرى الحسنات الا فيها ولا يرى فى سواها غير السيئات ولذلك فهو لا يفيد فى الخدمة العامة وقد يضر ... »

***

والكتابة عند جرجى زيدان لها شروط وقواعد . وهى ملكة وليست حرفة ولكل لون منها لغة ومنهاج . وهو فى هذا معتدل الرأى يرىضرورة الاخذ باللسان العربى وتجنب التعبيرات الافرنجية

يقول « على من يعمد الى التأليف ان يحافظ على ملكة اللسان العربى ويتجنب التعبيرات الافرنجية . ولا يتم ذلك الا بمطالعة

الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التى كتبها العرب فى الموضوع الذى يريد الكتابة فيه وما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير فى ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات والفاظ لا يستحسن ايرادها فى علم آخر . فلغة العلوم الطبيعية مثلا غير لغة الموضوعات الادبية ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة

والكتابة فى اعتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر . فالشاعر المطبوع تظهر شاعريته ولو لم يعرف العروض . وكذلك الكاتب المطبوع لأن المعنى صورة من صور الذهن والكتابة رسم تلك الصور على الورق . والمعانى تخطر لعامةالناس كماتخطر لعلمائهمعلى تفاوت بينهم . وكل منهم يعبر عن معانيه اما تكلما او كتابة على اسلوب خاص به

والمعانى ترجع فى وضوحها وابهامها الى حالة صورتها فى ذهن الكاتب فاذا كانت الصورة واضحة فى ذهنه ظهر ظلها واضحا فى كتابته أو كلامه ، واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها فى خلال سطوره . . »

وهو يرى ضرورة ترتيب اجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعانىمعالسهولة والوضوح « وهىملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة او الصناعة . ولكل كاتب اسلوب خاص به يمثل سلسلة افكاره يعبر عنه بالذوق فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به »

***

ويصور جرجى زيدان صناعة القلم فى احد اعداد السنة الحادية عشرة (١٩٠٣) من الهلال ـ بأنها اكثر المهن العلمية حاجة الى « التدبير » لانها تتعلق بشعور الناس . وتمس حاجاتهم الادبية واعتقاداتهم الاجتماعية ـ لاسيما فى الشرق لاختلاف المشارب والمذاهب والاذواق والاخلاق

وهو يرى أن الكاتب الشرقى « قبل أن يتناول القلم يرى العقبات تتوالى امامه ومهما يكن من تفاهة موضوعه او اهميته

لا يدرى ما يكون تأثير اقواله على قرائه . فاذا ارضى المسلم لا يرضى المسيحى واذا ارضى المصرى لا يرضى السورى أو العراقى . واذا أرضى النشء المتعلم اغضب المحافظين على القديم واذا أرضى هؤلاء جميعا لا يرضى نفسه لأنه لا يطلق لقلمه الحرية اللازمة لكاتب فى الاجتماعيات

ويضطر — أى الكاتب الشرقى — لتقرير الحقيقة الاجتماعية أو التهذيبية التى يقولها الكاتب الافرنجى بصراحة دونأن يحتاط لما قد يقيمه المتعنتون من الاعتراضات التى لا طائل تحتها لكنها تؤثر فى نفوس القراء

واول واجب على الكاتب اذا اراد ان يكون لكلامه تأثير فى قرائه ان يغرس فى قلوبهم حسن الظن به فاذا ساء ظنهم فيه ذهب تعبه سدى . فالكاتب العربى لا يقدر ان يفيد قراءه ويستفيد هو من مهنته الا اذا احسن التدبير ، لا يكفيه أن يكون عالما فى موضوعه بل لابد من « التدبير » فيما يكتبه تجنبا لسوء الظن فيه . فيجب أنيكون على بينة منحاجات قرائه واخلاقهم وأن يحسنسبك آرائه بما يرضيهم ويفيدهم وهذا لا يكون الا بالتدبير . والتدبير اللازم للكتابة يختلف مقداره باختلاف البحوث . وتزيد الحاجة الى التدبير كلما تعددت الكتب وتفرعت البحوث . . »

ومن كل عبارة وكلمة من هذه الكلمات تحس بالتجربة والخبرة والمسئولية التى يفهمها جرجى زيدان حق الفهم ويقدرها كل التقدير وهو يواجه قراءه بآثاره ومؤلفاته واعداد مجلته « الهلال »

ومذهب جرجى زيدان الادبى من خلال هذه المعانى كلها واضح صريح : هو تحطيم السدود والقيود التقليدية التىتقف فى وجه الفكر العربى والاسلامى سواء من ناحية أسلوب البحث او اسلوب التعبير بحيث يكون سهلا يسيرا من ناحية عميقا رصينا من ناحية اخرى

واوضح اهداف مذهب جرجى زيدان الادبى هو احترام القارىء وتقديره والاخلاص له فى كشف الجوانب الخفية عنه فى عالم الفكر

والبحث وقد كان لهذا الاتجاه اثره فى نفوس القراء فقد حظى جرجى زيدان بالتقدير والحب والثقة من قرائه فى مختلف نواحى العالم الاسلامى الواسع

ولا شك ان جرجى زيدان قد احتمل متاعب شق الطريق وحمل الانقاض امام الجيل الذى جاء من بعده والذى اطلق عليه « جيل الرواد » فقد عمل بقلمه فى سبيل تحرير الفكر من قيود التقليد التى كانت مفروضة عليه فى القرن الماضى وفى سبيل تحرير الاسلوب من قيود الزخرف والصناعة وبذلك استطاع هيكل وطه حسين والمازنى والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامه موسى ومحمود عزمى واحمد امين ان يسيروا فى الطريق الممهد الذى جاهد فى اعداده جرجى زيدان وواجه فى سبيله حملات عنيفة من خصومه ، واجهها بثبات وايمان وكبرياء وشجاعة باهرة ..

تجربته وخبرته

لعل من أبلغ الاسباب التى أدت الى نجاح جرجى زيدان فى عمله الفكرى والادبى وفوزه بهذا الجاه العريض من التقدير فى نظر معاصريه ومؤرخيه على السواء هو « عمق التجربة » التى مر بها والخبرة التى حصل عليها وقدرته على الافادة منها

فقد مر جرجى زيدان بعديد من التجارب البعيدة المدى ، لا أعتقد أن كاتبا أتيحت له على هذه الصورة فقد اشتغل بالعمل فى المحيط العام حيث صادف فنونا من الناس وصورا من الاخلاق والطباع . ثم اذا هو يذهب فى أكثر من رحلة وسفر ميمما شطر مصر والسودان ثم أوربا . وهو قد تعلم عديدا من اللغات ، وعمل مدرسا وصحفيا فى الصحف اليومية وأدار المقتطف . وفى خلال عمله فى الهلال اتصل بالناس أيضا واصطدم بعدد من العاملين معه فى مهنته . كل هذا أعطى جرجى زيدان خبرته ورصانته وتجربته

ولذلك فان الذين التقوا به وعاشروه قد شهدوه وهو فى ذروة نضجه نتيجة للخبرة الطويلة . وللطبيعة النفسية القادرة على الافادة من كل تجربة . يقول سامى الجريدينى «اذكر رجلا على حد قول شكسبير — من قمة رأسه لأخمص قدمه — حرر الهلال عشرين سنة ونيفا ، فكان فى أول سنة من سنى الهلال يقف الى مكتبه وقوفا يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا . ويترجم رجلا مشهورا أو يؤلف رواية تاريخية . ثم يراقب الطبع والتصحيح . دائبا على العمل نهارا وليلا . ثم توفى . وكان قبيل الوفاة ببضع دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته . والرجل منا اذا كتب مقالا ملأ الارض والسماء من الشكوى من العمل ومن التعب واجهاد الفكر . بل قليل منا من يبدأ عمله ويثابر على اتمامه أو يشرع فى أمر وتظل همته تلازمه حتى انهائه .. ما أساء الى أحد قط . كان ينتقده الحاسدون . حمل عليه الجهلة المتعصبون فاذا ما رأيته رأيت منه صدرا واسعا . ووجها باشا غير متكلف أو متصنع . يسكت عن

الاساءة ويمر بها مرا كريما ويأخذ الحسنة فيشكر عليها ٠٠٠ »

هذه صفة زيدان وطابعه النفسى · « مثابرة على العمل حتى اللحظة الاخيرة ، فى سرور ونشاط · القيام بالواجب وتحمل النقد بمحيا طلق وصدر رحب · الاغضاء عن الاساءة · لين العريكة » مامن كاتب تحدث عنه الا وأورد هذه الصفات · فاذا أضفت اليها مظهره الذى تراه فى صوره · مظهر السماحة والبساطة ، وأضفت الى ذلك جسدا قويا عارما قادرا على تحمل المشاق · وروحا دؤوبا متطلعا الى المجد والعلا · صبورا على البحث والدرس ·· وقلبا مضيئا متصوفا زاهدا لم تفزعه الاوهام أو الاهواء أو الصبوات وجدت أمامك كائنا حيا هو : جرجى زيدان

ووصفه عباس العقاد عندما التقى به « .. رأيت جرجى زيدان فيما أذكر مرات معدودات · احداها فى مكتبة الهلال وأنا فى السادسة عشرة وكنت ذاهبا من قنا الى الزقازيق لأتسلم وظيفتى الاولى فى دواوين الحكومة · وقيل لى من قبل ان مكتبة الهلال على مقربة من محطة السكة الحديد ، وقد قضيت الوقت مابين قطارين فى زيارة تلك المكتبة · والتزود بما طاب لى من المصنفات وأنا عامر الجيب بعض العمار · وسألت البائع أعندك مصنف فى علم الجمال فحار صاحبنا واتجه الى رجل كان يجلس على كرسى صغير فى مدخل المكتبة ومعه شيخ يحدثه فى أسلوب السيدالبكرى والرجل يقول له انه قد رجع بالكتابة العربية مئات السنين

أما الشيخ فقد رأيته فيما بعد فعلمت أنه هو الشيخ أبو بكر مصطفى المنفلوطى الاديب الصحفى المعروف·وأما الرجل الذى سأله البائع عن مصنف علم الجمال فقد علمت أنه هو « صاحب الهلال » وقد سمعت منه أن هذا العلم ليس له بالعربية مصنفات

ومرة أخرى زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر وأنا مشغول بقراءة شوبنهور لأسأله رأيه فى أصح النظريتين الى حقائق الحياة · نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين

فقال لى ماخلاصته ان كلتا النظريتين لاتتميزان بالصحة والبطلان· ولكنهما يتميزان بالميل والمزاج · وقد يرى الانسان شيئا واحدا فى حالتين مختلفتين فاذا هو داع الى الرجاء فى حالة وداع الى القنوط

فى الحالة الاخرى . وكل منهمـــا لا يخلو من بعض الخطـأ أو بعض الصواب »

ويصف العقاد نفسية زيدان فيقول « رجل ليست طبيعة تفكيره التحيز والتوثب والازعاج . وانما طبيعة تفكيره التوجيــه فى رفق وسكون فهل قلت هدايته من جراء ذاك . كلا ! بل لعلهـا زادت . وان كان هو لم يكسب من الضجة والسطوع ما كان يكسب لو كان من أصحاب النزعات والعصبيات »

ومن الذين عاشروه عن قرب ولمسوا شمائله أحمد حافظ عوض ، صاحب كوكب الشرق ..

« عرفت منشىء الهلال طيب الله ثراه بالاسم . وأنا بادىء حياتى الادبية كثير الشغف كالناشـئين بالاطلاع على القصص التاريخيـة والخياليـة فكان أول اتصـالى الادبى والروحانى به رواية « المملوك الشارد » ثم لازلت وعود الشباب غض طرى وعقـل الفتـوة وثاب وخيالى خال من متاعب الحياة ومشاكل الوجود أتابع تلاوة رواياته ومنشئاته أتلذذ بها وأتغذى منهاواطير معها واصفق لهاحتى اشتغلت بالصحافة فتعارفنا وتصادقنا ودامت بيننا عشرة طويلة لم يؤثر فى صفائها انتقاد أدبى ولا رسائل من هذا القبيل ظهرت من آن لآخر فى جريدتى المؤيد والمنبر لأنه كان كجميع العلمـاء العـاملين رحب الصدر محبا للتمحيص والنقد . ولقد وجدت من هـذه الاخـــلاق الفاضلة ومن تلك النفس الودود الطيبة ما حببه الى .. »

وهذه صوة أخرى يرسمها خليل مطران

« ما عرفت فيه الا الصدق مهما تعظم تكاليفه . والوفاء مهمايحل دونه من الصعاب . والبر بذوى رحمه الى نهاية ما يقتضيه النصح والسخاء والنجدة للاصدقاء . حتى يكونون منه كأدنى قرابته اليـه وســماحة النظرة فى معاملة الناس . لا يألوهم ارشـــادا ويلتمس المعاذير لمخطئيهم ويغتفر الزلات للمسيئين اليه منهم

وكان الى ذلك محتشما مهذبا عف اللسان وديعا لا يأخذه الزهو حيث يزهى أرصن أولى الالباب وأبصرهم بكنه الامور

أما الفضائل التى اتصف بها فيما تصدى له من الخـدمة العامة

فأعلاها الابتكار يؤيده فيه ذكاء متوقد وجلد غير منقطع عن الكد والكدح . وصبر على المكاره لا تقوى عليه الا القلوب الكبيرة وزهد فى المباهج والاباطيل وتوطين للنفس على أن السعادة كل السعادة انما هى فى العمل .. »

ويقول عبد العزيز البشرى « ان كل ما كان حوله من أول نشأته وما اعترضه فى طريقه كان يهيئه لأن يكون فى الحياة شيئا ، لو أن العدم يحتاج الى دواع وأسباب . ثم اذا هو برغم ذلك رجل عظيم جليل

كان فيه نبوغ . ولكنه العزم . العزم الجبار الذى يأبى أن ينتزع لهذا النبوغ حقه من لهوات الايام . ان حياته نفسها أعظم وأضخم . ما أبلغها درسا لمن فاتتهم العظمة لتخلف الهمم ..

ومما لا يطوف به الشك أنك اذ تطالع سيرة هذا الرجل ولو فى ايجاز لا تستطيع أن تملك عن نفسك ما ينازعها من روعة واعجاب وعجب لا تدرى لأيها تكون السطوة عليك ولأيها يكون على صاحبه الغلب .. »

وهكذا تعطى التجربة جرجى زيدان سر النجاح . وتمنحه الظفر بالمكان الذى وصل اليه

يقول احمد أمين فى صورة رسمها له تفيض بالصدق :

« عصامى كون نفسه . وحمل عبئه . ورسم له مثلا أعلى آمن به . ووضع الخطط المحكمة له ولم يهدأ حتى وصل اليه . يريد أن يتعلم ولا يجد المال فيخضع الزمن لارادته ويوفق بين مطلبه فى العلم ومطلبه فى المال

.. يعمل مدرسا فى المدرسة العبيدية ثم يتركها ليدير مجلة المقتطف عامين . ثم يخرج من كل ذلك وفى ذهنه صورة كاملة لما يريد أن يعمله مسترشدا بتجاربه فى الحياة وتجاربه فى الاسفار وتجاربه فيما زاول من أعمال مهتديا بما تجلى له من ملكاته وتفاعلها مع ظروفه الخارجية

.. كانت خطته أن يهب نفسه للعلم كما يهب العابد نفسه للدير

ونيخدم العلم من طرقه المختلفة • ينشىء مجلة الهلال ويديرها ويحررها مع عدد من الكتاب • ويعطى لذلك جزءا من زمنه • أما الزمن الآخر فللدراسة والتأليف فى اللغة • فى التاريخ • فى الادب• وليحسب حساب المال كمايحسب حساب العلم . فقدتصدى لمهمة شاقة ، وهى أن يكون مؤلفا وناشرا وعالما وتاجرا . منتجا فى العلم والادب • وموزعا للانتاج وهى مهمة حاولها كثيرون ففشلوا بل حاولتها حكومات ففشلت • أما هو فقد نجح فيها بجهده ويقظته ودقة حسابه واستقامته •• وظل يعمل لهذه الخطة بضعة وعشرين عاما من غير انقطاع • وتعترضه الصعوبات الجمة فيحاول علاجها على الطريقة التى تعلمها فى الطب من تشخيص للمرض ومعرفة السبب ووصف العلاج •• »

ولا شك أن ملاحظة أحمد أمين بشأن أثر دراسة الطب فى أدب جرجى زيدان صادقة وعميقة ولعلى لو أضفت اليها أنه تعلم«الدوبيا» أيضا وهى فن الحساب ومسك الدفاتر وقد كان لها أثرها البعيد فى عمله فى الهلال

ويصور أنطون الجميل لقاء له مع جرجى زيدان كان له أثره فى اتجاهه الادبى :

« مازلت أذكر ما كان لمنشىء الهلال من الفضل يوما ما على نشأتى الادبية • كنا قبيل الحرب الماضية وكان جيلنا من شبان تلك الحقبة يتطلع الى النهضة الفكرية فى الشرق ويتلمس آثارها فى كتابات من كان فى الطليعة من أدبائنا

كان رحمه الله يقصد عند مغرب كل يوم الى مكتبة الهلال فى أول شارع الفجالة حيث يلتف حوله عصبة من رجال القلم يتفكهون ويتنادرون وقدمت له ذات يوم مقالا عن ديوان الخليل فلما قرأه قال لى أبشرك بمستقبل حسن فى الادب اذا ثابرت على البحث والكتابة• وفى الشهر التالى قرأت بحثى منشورا فى الهلال وتفضل رحمات الله عليه بأن أهدى الى المجلة على سبيل المكافأة • ولا شك أن هذا الحافز كان من الحوافز التى دفعتنى الى الكتابة فى المستقبل •• »

من مجموعة هذه الصور نرى نفسية « جرجى زيدان » واضحة المعالم وقد تكاملت عناصرها ونضجت خبرتها ٠ وحققت أبعد مدى من النجاح ٠ ولعل هذه اللمحات تعطى لشبابنا حقيقة أكيدة هى أن الافادة من التجربة والحرص على كسب الخبرة يؤلفان طاقة ضـــخمة من القوة الروحية والصلابة الذاتية التى تكون عنصرا فعالا فى الظفر بتحقيق الهدف المرسوم

أدبــه

- المؤرخ
- الأديب
- الصحفى
- الروائى

المؤرخ

« التاريخ » هو فنه الأصيل الذى بلغ فيـه الذروة . واحدث فيه تجديدا واضحا . وهو محور عمله كله « تاريخ آداب اللغـة العربية . تاريخ التمدن الاسلامى . تاريخ العرب قبل الاسلام . تاريخ مصر الحديث . تاريخ مشاهير الشرق . تاريخ اللغة العربية . انسـاب العرب القدماء » ولقـد بلغ جرجى زيدان فى عمله هـذا مبلغا خطيرا . وادى به للثقافة يدا بالغة فـكانت فى مجموعها بعيدة الأثر فى كل عمل تاريخى تلاها . وكانت بداية نهضة فكرية تاريخية ظهرت فى عديد من الآثار الفكرية فى مقدمتها مؤلفـات احمد أمين وحسن ابراهيم حسن ، ومحمد عبد الله عنان ، وغيرهم

فاذا ذهبنا نستقصى هذه المجلدات الضخمة وجدنا فيهـا علما خالصا فيه الجهد المبذول والمراجعة العميقة والمقـارنة الدقيقة . آلاف الصفحات عن عالم مجهول لم يرتده من قبـل الا رواد قليلون جانبيون ، رسموا زوايا مختلفة من هنا وهناك . ولـكن عملا متصلا كاملا دقيقا ، لم يكن معروفا قبل جرجى زيدان

وكان لجرجى زيدان خطة واضحة فى دراسته : هى تشريح هذا التاريخ تشريحا مجردا عن مظاهر القداسة على أسـاس الأسلوب العلمى الخالص ، وقد حشد له كل امكانياته من المراجع العديدة التى احضرها من امهات المكتبات فى اوربا باللغات المختلفة وذلك بجانب المؤلفات العربية القديمة التى استوعبها جميعا

وقد صور جرجى زيدان ماتحمله من متاعب فى سبيل تحقيق غايته التاريخية فقال :

« نشطنا فى المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامى وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها

بعضها ببعض مع تطبيقها على احكام العقـل ونواميس العمران .
فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها على سذاجة اسلوبها فى سرد
الحوادث وايراد الوقائع ونتدبر ما نقراه ثم نستخرج منـه فلسفة
ذلك التمـدن العجيب كما نسـتخرج السكر من الخروب . لأن
مؤرخى الاسلام مع ما بذلوه من الجهد فى تحقيق الحوادث وتمحيص
أسانيدها ومصادرها قلما نظروا فى علاقاتها أو عللوا أسبابها وانما
نقلوها على علاتها وخصوصا مايتعلق منها بسلامة الدولة وكيفية
انتقال الملك من عائلة الى عائلة أو أمة الى أمة أو طائفة الى طائفة .
لأن تعليل تلك الحوادث يبعث احيـانا على الطعن فى أقوال بعض
الخلفاء أو تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين
ورجاله »

ولقد أمضى جرجى زيدان وقتـا طويلا يراجع ويبحث ويهيىء
نفسه لهذا العمل فلم يقدم عليه الا بعد أن استكمل ادواته ، يقول :

« علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام وكنـا نغتنم ساعات الفراغ
من انشاء الهلال ونعلق مايبدو لنا من حقـائقه على أمل التفرغ
لتأليف تاريخ مطول فيه وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة . ثم
اخذنا نهيىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفـاوت معارفهم
ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بماننشره من الروايات التـاريخية
الاسلامية تباعا فى الهلال . ذلك لأن مطالعة التاريخ الصرف تثقل
على جمهور القراء خصوصا فى بلادنا ــ والعلم لايزال عندنا فى دور
الطفولة ــ فلابد لنا من الاحتيال فى نشر العلم بيننـا بما يرغب فى
القراءة والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية ..

اما الآن فليس ما يمنعنا من الخوض فى هذا العباب فقد حاول
غير واحد من علماء الشرق من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه هذا
« التمدن » فلم يجدوا فى كتب القوم مايشفى غليلا لتشتت هذه
الحقائق وتبعثرها . ولذلك لـما أعلنا عن عزمنـا على تأليف هـذا
الكتاب كتب الينا جماعة يستغربون اقدامنا على ركوب هـذا المركب
الخشن . وقد زاد عدد ماطالعناه من الـكتب العربية والافرنجيـة
على مائتى مجلد ، عدا ماراجعناه من القواميس العامة والموسوعات

على اختلاف اللغات والموضوعات .. »

هذا ماذكره جرجى زيدان فى مقدمة كتاب تاريخ التمدن الاسلامى وهو يعطى صورة واضحة للهدف الذى كان يرمى اليه وهو نشر الثقافة التاريخية بوسائل مختلفة وقد دفعه هذا الحرص على أن يبدأ بنشر رواياته التاريخية ليقرب هذا الهدف الى نفوس القراء فى نفس الوقت الذى استوعب فيه عددا ضخما من المجلدات التاريخية بمختلف اللغات

والحق ان « التمدن الاسلامى » هو لون جديد من الدراسة التاريخية لم يسبق اليه جرجى زيدان فى فنون تاريخنا العربى . فقد كانت المعلومات الخاصة به نادرة وقليلة ومدفونة فى بطون الكتب وكانت فى حاجة الى جمعها وعرضها واستيعابها واستكمالها بما كتب عن تاريخنا

وقد عرف له هذا الفضل جميع من أرخوا له وكتبوا عنه

يقول انيس المقدسى :

قام زيدان وتراثنا الادبى مبعثر فى بطون الكتب القديمة . وقد تمكن بما وهبه الله من حسن البصيرة واتزان الفكر ومضاء العزم ان ينظم هذا التراث وان يعبد طريق البحث العلمى فيه

كان تاريخ الأدب العربى قبله وكذلك تاريخ الحضارة الاسلامية كغابة كثيرة الادغال لايعرف السالك فيها كيف يسير فكان عمله الخالد أن يرود تلك الغابة فيشق فيها الطرق ويسهل المسالك ويقيم المعالم ويحول تلك المجاهل أرضا عامرة يجوبها محب البحث دون نصب ولا يعرف قيمة هذين الكتابين (تاريخ الأدب العربى وتاريخ التمدن الاسلامى) والجهود التى بذلت فى سبيل اخراجهما الا الذين يعنون بهذه الدراسات ويعرفون مشقة الوصول الى المصادر الاولية »

ويقول احمد حسن الزيات :

« كان جرجى زيدان يومئذ قد انفرد فى العالم الاسلامى كله بالتأليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ

العرب والادب والحضارة الاسلامية بالاسلوب الواضح والقصص العجيب والعرض الطريف فكان ما ألفه من الكتب فى تاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ اللغة العربية وتاريخ التمدن الاسلامى وتاريخ آداب اللغة العربية . وما أنشأه من القصص التاريخية الاسلامية على نحو مافعل ولترسكوت ، هذه الآثار التى كانت فتحا مبينا فى ميدان الثقافة العربية . وقرب الموارد لكل باحث ومهد السبيل لكل كاتب

وكتب الدكتور محمد حسين هيكل فى الجريدة عام ١٩١٢ ــ ابان حياة جرجى زيدان ــ يقول : « جرجى زيدان من اكبر كتاب التاريخ فى مصر . بل لا ابالغ اذا قلت انه الرجل الوحيد المتفرغ فى الوقت الحاضر لكتابة التاريخ

وقد كتب جرجى زيدان اكثر من خمسةوعشرين كتابا فى التاريخ . ويظهر حين قراءتها ان غرض المؤلف فيها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التى وقعت فى الماضى وانه لا يقصد من مؤلفاته التاريخية الى تأييد فكرة له عن طريق سير العالم كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب التاريخ ولكنه يريد نشر المعرفة .. »

***

لقد كان جرجى زيدان مؤرخا اعطى كل صفات المؤرخ الحقيقى فما هى هذه الصفات

يقول مصطفى لطفى المنفلوطى : « .. كان شريف النفس بعيد الهمة . متجملا بصفات المؤرخ الحقيقى الذى لا يتعصب ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل ولا يترك لعقيدته الشخصية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ..

كتب وهو المسيحى الارثوذكسى تاريخ الاسلام فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لا يكتم الحسنة اذا رآها ولايشمت بالسيئة اذا عثر بها وكان فى تسامحه القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه وميول نفسه وخواطر قلبه أمام الامانة للعلم والوفاء بحقه . وقد وقف له فى طريق حياته

كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق القاطعين فى هذا البلـد الذين لا ينطقون ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقـين فلبسـوا ثوب الانتقاد ليشتموه . وكمنوا وراء اكمة الدين ليرموه فيصموه . وقالوا انه شوه التاريخ الاسلامى وعبث بحقائقه ولم يسألوه من أين نقل. ولا كيف استند بل سألوه لم لم يكتب كما كتبوا . ولم يستنتج كما استنتجوا كأنه لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحيا متسامحا حتى ارادوا منه أن يكون مسلما متعصبا يكتب التاريخ بلسـان الدين كما يكتبون . وينهج فيه كما ينهجون فـلم يجـدوه حيث ارادوه فرموه بسوء القصد فى عمله وخبث النية فى مذهبه ، ولم يستطيعوا ان يروضوا انفسهم الجامحة على ان يقولوا ان الرجـل باحث مستنتج يخطىء مرة ويصـيب اخرى أو يقولوا ان فى تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلتغفر هذه لتلك ..

.. ولم يضق الرجل ذرعا بهذا كله . بل كان شأنه معهم ان كان يعتب عليهم ولا يشتمهم وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتهـا ولا يؤنبهم . ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ولا يمكر بهم

لقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم ، أول حجر فى بناء الاخلاق الفاضلة فى هذه الامة ، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون ان يتناظروا ولا يتشاتموا وان يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا فى معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف واذا تم لهذه الامة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ، ونبـالة القصد فى جميع شئونها واغراضها فلتذكر أن جرجى زيدان أحـد الذين أسسوا فى أرضها هـذه الدولة الفاضلـة : « دولة الآداب والخلق .. »

وهذه كلمة رجل كان خصمه فى ابان حياته وكان مناظره فى كثير من المساجلات ولـكنه يعترف له بالفضل : ذلك هو المؤرخ الاسلامى رفيق العظم

« .. ان من يطالع كتب جرجى زيدان ويطالع كتب المؤرخـين

قبله لا يسعه الا الاعتراف بفضله على التاريخ . والاقرار بأنه عانى من المشاق فى وضع كتبه هذه ما لم يعانه مؤرخ من قبل . وانه اختط طريقا خاصا للمؤرخين من العرب فى تقسيم التاريخ وترتيبه يشهد بأنه كان من خيرة مؤرخى العرب واطولهم باعا فى انتقاء المواضيع الاجتماعية التى لم يسبقه الى التخصص فى مثلها احد من مؤرخينا الاقدمين

... اننى عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون . وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاء الحوادث والاخبار . فلم ار أحسن من الاسلوب الذى اتبعه جرجى زيدان . ولا أدق ترتيبا للمواضيع واختبارا للحوادث خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الاسلامية فحق على كل مؤرخ ان يعترف بأن جرجى زيدان مؤرخ بالمعنى الصحيح . وان له فضلا على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية وتاريخها ينبغى أن يذكر له .. »

أما انطون الجميل فيصور جرجى زيدان المؤرخ بقوله :

« عمد الى التاريخ والتاريخ رسول الماضى وعبرة الآتى. فاستطلع دخائله واستجلى غوامضه فلما توفرت لديه مواده . ودانت له اشتاتها عمل على تعميم فوائده بين قراء العربية . وقد جمع المستندات والحوادث من موارد مختلفة ومظان شتى . فصور تلك العصور الخوالى تصويرا جمع الى الحقيقة والامانة الوضوح والجلاء. فلم يتجاهل محامدها وهى كثيرة ولم يغض الطرف عن عيوبها واى الشعوب تخلو من العيوب

قام بواجب المؤرخ يدون الحوادث ويردها الى اصول عامة ليستخلص منها الحقائق . عرف ان التاريخ لم يبق مقتصرا على ايراد الوقائع. بل هو يجمع الى سرد الحوادث نقدها . والى وصف العادات تقدير الافكار والمبادىء والى رواية أعمال الرجال درس أخلاقهم مبينا تأثير الرجل فى زمانه وتأثير الزمان فى الرجل . وهذه هى فلسفة التاريخ .. »

ويصور محمد فريد وجدى مدى الجهد الذى احتمله « جـرجى زيدان » المؤرخ فيقول :

« التمدن . .عمل ضخم لا يقل ضخامة عن كتابه تاريخ الادب العربى ان لم نقل يفوقه كثيرا . لم يغادر فيه مظهرا من مظاهر هذا التمدن الفخم الا بينه وفصله أكمل تفصيل

ومثل هذا العمل لو قام به رجل فى البـلاد التى تقدر العـلم قدره وتجزى اهله بما يستحقون لنصبوا له تمثالا . ولـكننا فى الشرق حيث يستفاد من عمل النابغين وتنتهب ثمرات كدهم انتهابا أمام اعينهم مع غموط حقوقهم والسعى لطمس اسمائهم . .

ان من يتصفح تاريخ التمـدن الاسلامى يعجب بل يدهش من الصبر على الجهد المضنى الذى بذله مؤلفه فى مراجعة كل هـذه المصادر العلمية من عربية واجنبية من عدة مؤلفات : ثم جمعهـا وترتيبها وتبويبها مع الاشارة الى تلك المصادر فى ذيول الصفحات لمن يريد أن يراجعها فى مواطنها من المؤلفات المتعددة

وقد لاحظ بعض النقاد على هـذا الـكتاب ان مؤلفه قد اخطأ فى بعض تلك الاحالات وانه قد أطلق فى محل التقييد وعمم فى مواطن التخصيص وهذا كله مع افتراض صحته لا يعقل ان يخلو منـه كتاب فيه خمسة آلاف احالة ومما يدل على عظم قـدر الـكتاب وجلالة موضوعه انه قد مضى عليه أكثر من ثلاثين سنـة (١) ولم يحاول أحد ولا جماعة وضع مثله ، مع أن المجال يسع عشرات من أمثاله

ان من أكبر مظاهر الشرف لمؤلف أن يتقدم سواه فى وضع عمل ضخم من هذا الطراز فيظل أكثر من ثلث قـرن المورد الوحيـد لمئات الالوف من الباحثين والمستفيدين »

اما أحمد امين وهو العالم المؤرخ الذى درج على سـنة جـرجى زيدان واستفاد من جهوده فيقول : « كانت دراسـة التـاريخ فى

---

(١) كتب عام ١٩٤٢

العالم الشرقى عندما بدأ جرجى زيدان فى تأليفه التاريخ ، قد تقدمت بعض التقدم بفضل نشاط المطابع فى نشر الكتب التاريخية والادبية القديمة فعكف الخاصة على قراءتها والاستفادة منها . كان ينقصهم شىء آخر هام لا يستطيعون الاستفادة منه وهو اطلاعهم على المجهود الضخم الذى قام به المستشرقون فمنذ القرن الثانى عشر الميلادى بل وقبل ذلك والمستشرقون يبحثون فى الحضارة الاسلامية وآداب اللغة العربية

ولما اخترعت المطابع اخذوا ينشرون الكتب العربية التاريخية والادبية فى جد ونشاط والفوا الجمعيات الاستشراقية والمجلات المتعددة فكان من عملهم ثروة كبيرة . والى جانب ذلك كله كان لهم فضل آخر وهو منهجهم الذى اتبعوه فى البحث وعنايتهم بذكر المصادر ومناقشة الادلة ونظرتهم العامة الى الموضوع وتحليل أسبابه وعلله وما الى ذلك كل هذه الثروة كانت مجهولة عند اكثر المشتغلين بالتاريخ والادب فى العالم الشرقى لجهلهم باللغات التى ألفت بها . وقد استفاد جرجى زيدان من المكتبة العربية والمكتبة الادبية الاستشراقية واستطاع ان يمزج ذلك فيخرج نتاجا جديدا . .

وتاريخ التمدن الاسلامى عمل فى منتهى المشقة والعسر . فالمتعرض له يلزمه أن يكون مثقفا ثقافة واسعة فى العلم والادب والفقه والمذاهب الدينية وقواعد التطورات الاجتماعية ولكل فرع من هذه الفروع مصطلحات دقيقة

والمؤلفون من مؤرخى العرب لم يعنوا بالناحية الاجتماعية والمدنية عنايتهم بأحداث الخلفاء والملوك والوقائع الحربية والعزل والولاية ، فيضطر الباحث الى تقليب الكتب العديدة لاستخراج نص فى ظاهرة جديدة وتقليب كتب أخرى لاستخراج نص آخر فى مائتى مجلد ما بين عربى وفرنسى وانجليزى والمانى . كما يجمع النصوص الواردة فى موضوع واحد ويسلط عليها ذهنه ليربط بعضها ببعض ويستخرج منها صورة كاملة

. . وقد اخذ عليه أن يستنتج من النص أكثر مما يحتمل . وقد

يفسره تفسيرا غير معروف وقد يعتمد على كتب لم يؤلفها المؤرخون.
ولكن هذا كله لم يقلل من قيمة هذا العمل الضخم الذى تعرض فيه لان يشرح الحضارة الاسلامية فى ثروتها وادارتها وسياستها وجنديتها وعلمها وادبها وصناعتها وخلقها واى مؤلف سلم من النقد وعصم من الخطأ انما الخطأ الفاضح أن يعمد قوم الى اخذ بعض المساوىء فيشهرون بها ويتعمدون تغطية المحاسن وسترها .. »

وقد صور جرجى زيدان مدى الجهد الذى احتمله فى سبيل الامانة العلمية والتاريخية وموقف خصومه من المتمسكين بأقوال القدماء والمزدرين للمستشرقين فقال : « لا نظن كاتبا من كتاب العصر لاقى ما لا قيناه من الانتقاد فى أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة » وعندنا ان النقد الذى وجه الى جرجى زيدان كان جائرا وقد قال ان الخاصة نقدوه لانه لم يتوسع بقدر ما يشتهون . كما نقده غير الخاصة لأنه اتى بأكثر مما يشتهون ونقده بعض المسلمين لأنه نقض بعض محاسنهم ونقده بعض المسيحيين لانه تحمس للمسلمين أكثرمما ينبغى.. واليوم تبخر هذا كله وانطوى. وبقى جرجى زيدان علما من أعلام المؤرخين

والذى لا يمكن أن ينسى فى تاريخ عمل جرجى زيدان التاريخى ويجب أن يسجل بمزيد من الاعتبار والتقدير أنه كان يختم عمله دائما بعبارة : « العصمة لله وحده » وكان يطالب القارىء بأن يرده اذا كان قد اخطأ أو سها وهو دائما يذكر الفضل لأهله . ولا يدعى العلم بكل شىء . وهى صفات فيها تواضع العلماء ونصاعة أرواحهم

وهو يسجل هذا المعنى فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث »

« يقال فى الامثال : من الف فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف . وان أساء فقد استقذف . أما أنا فان احسنت فان الفضل لأفاضل الكتبة وثقاة الرواة الذين سبقونى لانى لم آت بشىء من عند نفسى ما خلا الحوادث التى قدر لى أن اكون شاهد عين . وما تفقدته بنفسى من الآثار العربية والمصرية والدراسات فذلك دأب العاجز ولكنى أرغب الى من يعثر لى على خطأ أن

ينبهني اليه لانى استحى من الحق اذا عرفته الا ارجع اليه أو يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا قول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل أعترف ان ما اجهل اكثر مما أعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم »

والخصلة الثانية التى أسجلها له هو انه يضيف فى الطبعات التالية زيادات وتصحيحات مما يتجمع له فىالفترة بينالطبعتين وهو فى ذلك يدلل على مدى حرصه على ان يطلع القارىء على آخر ما وصل اليه من تطور العلم فى المسائل التى يعرض لها

الاديب

لا ريب أن جرجى زيدان من علماء الادب ومؤرخيه . أمدته ثقافته العلمية الواسعة بالقدرة على بلوغ غاية المدى فى اعداد هذه الرسالة الضخمة التى سجلت تاريخ الادب العربى منذ العصر الجاهلى حتى وفاته عام ١٩١٤ . وقد كان عمله هذا خطيرا وجليلا ما اظن أن كاتبا من كتابنا ، أو اديبا من ادبائنا لم يتخذه مرجعه فى ابحاثه ودراساته ، ويتسم عمله هذا كما تتسم أعماله الاخرى بالطابع العلمى الواضح والاسلوب التلغرافى . والبساطةوالعمق ونقاء العبارة والتحرر من قيود التقليد التى عرفت بها الابحاث التى سبقته

ولم يقف عمل جرجى زيدان عند هذا البحث الادبى بل كان « هلاله » مرجعا ضخما للتطور الادبى يسجل حلقاته شهرا فشهرا

ولقد لقى جرجى زيدان فى عمله الادبى ما لقيه فى عمله التاريخى من عنت معاصريه ولكنه صمد واغضى ولم يراجع الا فى صميم الاتجاه الموضوعى

واذا كان جرجى زيدان قد كان بعيد الاثر فى البيئة الادبية فما هى العوامل التى أعطته هذه المكانة الضخمة

يقول طه حسين : كان هناك كتاب وعلماء وشعراء ومفكرون ، كما كانت هناك مجلات كثيرة مختلفة ولكن الواضح أن جرجى زيدان كان أبعد هؤلاء المثقفين اثرا فى الحياة الادبية المعاصرة كماكانت مجلة الهلال أبعد المجلات أثرا فى هذه الحياة الادبية

ذلك ان جرجى زيدان لم يكن ارستقراطى المزاج وانما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ولكنهما نافعتان اشد النفع احداهما النزعة العلمية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه . وفى فصوله الثقافية العامة

فهو قد كان يتجه اذن بعلمه وادبه الى أوساط المثقفين. ولست اعرف بيئة احسن استعدادا للانتفاع بالثقافة من هـذه البيئـة المتوسطة التى لا يرتفع بها الامتياز عن الاستفادة ولا يحيـط بهـا الجهل عن الانتفاع بما يقدم اليها من غذاء العقل والقلب والروح..»

وهذا معاصر آخر من تلاميذ جرجى زيدان والهلال يصور الجانب الادبى منه

« كان جرجى زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسـة الاجتماعية ، ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . وقـد أشار الى هذه الحاسة فى مقال قيم نشره فى السنة (٢٢) من سـنى المجلة وقال فيه : « .. ان نجاح الناس فى اعمالهم يتوقف على مقدار ما فيهم من هذه الحاسة أكثر من مقدار ما أحرزوه من سعة العلم أو المهارة فى الصناعة أو التجارة أو غيرها من وسائل المعاش. وهى أعظم اهمية فى معترك الحياة من الذكاء واقـل شيوعا منه . لا تزيد نسبتها فى الناس بالنظر الى الذكاء على اثنين أو ثلاثة فى المائة . أى ان الامهات يلدن اربعين ذكيا قبل أن يلدن واحدا من ذوى الحاسة الاجتماعية . ولذلك كثر الاذكياء . وقل الناصحون منهم لأن النجاح لا يتأتى للذكى ان لم يعلم كيف يستخدم ذكاءه ولا فائدة من العلم ان لم يحسن الاسلوب فى ادائه ..

ونحن حين نذكر الاستواء أو الطبع السليم لا ننظر فيه الى ناحية النجاح فى الاعمال وحسن استخدام الذكاء . وانمـا ننظـر فيه الى مصدره من السليقة ومظهره فى اختيار الموضوعات ورسالات الحياة. وهذا الاستواء هو الذى جعل آثار جرجى زيدان فى تثقيف قـراء العربية اقل ظهورا من الواجب لها ومن الحقيقة الواقعة

ولو كان جرجى زيدان من كتاب الانحراف والتحيز لا من كتاب الاستواء والطبع السليم لظهرت دعوته أوضح من هـذا الظهور . وتحيزت رسالته كما تتحيز كل رسالة يبعث اليها التعصب لفكرة خاصة والاندفاع فى طريق دون سائر الطرق والاستحماس لمذهب من المذاهب يراد به الهدم أكثر مما يراد به البناء ..

جرجى زيدان لم يكن متعصباً ولم يكن يتحزب ، ولم يكن يصبغ آراءه بلون من الوان الطيف الشمسى غير اللون الاصيل العام الشائع فى ضياء النهار فكانت آثاره من اجل هذا تسرى خــــلال القرائح والنفوس فى غير خلابة . ولا ضجيج ، ولا التفات كثير ، كما يشهـد الانسان ألف نهار مضىء فلا يستبقى من الشعور بها ما يستبقيه مناظر النيازك الملونة المفرقعة فى احدى الليلات

تقرأ جرجى زيدان فى جميع موضوعاته فاذا هى مطبوعة بطابع السداد والاستقامة والاستواء . هى جداول وليست بشلالات . وهى نبت الدوام وليست نبت الفلتات والجمحات . هى ماء قراح وليست بالقازوزة

اختر ما تشاء من مقالاته حيثما كانت مقاصدها فى الاجتماع او الاخلاق أو الآداب أو الحكمة أو السياسة العامة أو عبر التـاريخ ، فانك واجد فيها لا محالة سدادا من غير جلبة ولا تلوين ولا زخرف ولا اصطناع

الطبع السليم هو أساس تفكيره ويمده بعد الطبع السليم مددان قويان نافعان . أحدهما الاطلاع الواسع على تواريخ الامم وعبر الدهور ، وثانيهما البحث العلمى الحديث مما استفاده من دراسة الطب والصيدلة وسائر العلوم فضلا عن مراس الحياة العملية

وجرجى زيدان أقرب الى مدرسة الحكمة منه الى مدرسة العلوم الطبيعية مع أخذه من العلوم الطبيعية بنصيب مفيد . فكان مزاج هذا الرائد الكبير مزاج الحكيم المؤرخ الجانح الى استكناه الحقيقة عن طريق النظر الصحيح . وان لم يكن لذلك النظر الصحيح مسبار من قوارير المعامل وانابيق التحليل

وحكمه حكم أديب يعتمد على الخبرة والمراس الصادق والنظر الصحيح كما يعتمد على تجارب المعمل وتحليلات الانبيق . وبهذه الخبرة توفر على كتابة اعداد الهلال فكتب منها فى حياته ما يساوى مائتى كتاب منجمات على حسب الشهور

وبهذه الخبرة توفر على تأليف التواريخ ونقد الآداب وتنسيق

القصة التاريخية عشرين سنة ونيفا . فأرسل اشعة النور الى قرائه العديدين وقد كان له قراء فى كل صقع من أصقاع الارض يأوى اليه لسان عربى أو عقل مشغول بشئون الشرق والاسلام .. »

وجرجى زيدان قد بلغ غاية الجهد فى سبيل اداء رسالته الادبية حتى انه عمل فى بعض الاحيان فى حقل لامراجع فيه :يقول عبدالعزيز البشرى عن الجزء الرابع من كتابه تاريخ آداباللغة العربية :«بحسبك أن تطالع الجزء الاخير من هذا الكتاب . أعنى الجزء الذى يتناول فيه العصر الاخير ، لتدرك مبلغ الجهد الذى أنفق فى ترجمة مئات من أهل الفضل البارعين فى مختلف العلوم والفنون ، من شرقيين ومستشرقين واثبات أخبارهم وتقصى آثارهم وتحقيق سيرهم وتجلية صورهم ، ولا مرجع بين يديه ولا مستند يتكىء عليه .وبهذا كان هذا الجزء من أغزر الينابيع التى استقى منها كل من تحدثوا عن تاريخ الادب العربى فى العصر الحديث .. »

ولا شك ان عمل جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ـ كما يقول احمد أمين ـ يريد به أن يتمم ما بدأه ابن النديم فى فهرسته فيجعل منه دائرة معارف للعلماء والادباء والشعراء ووصف مؤلفاتهم وما بقى منها وما عدا عليه الزمن . وكان منهجه فيه منهجه فى سابقه فى الاحاطة بقدر الامكان بما الف فى ذلك من كتب العرب وكتب المستشرقين . وهو أشق من التمدن الاسلامى واعقد لأنه يتطلب احاطة تامة وعلما واسعا بما فى خزائن الكتب فى الاقاليم المختلفة شرقية وغربية وقد اجمع مؤرخو جرجى زيدان على انه « واضح (١) الاسلوب يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التى يتفاهمون بها فى جرائدهم ورسائلهم لا بتلك اللغة المخصوصة التى يتخذها جماعة من الكتاب درعا لهم تقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعابير التى يجيئون بها . ويكتب من غير عناء ولا تكلف بل يرسل قلمه حرا الى أقصى درجات الحرية

وبهذا الاسلوب البسيط يعبر عن كل ما يريد ويفهم القارىء بكل

(١) هيكل ـ الجريدة ٢٨ ابريل ١٩١٢

دقة ، الفكرة التى تجول فى نفسه . ثم هو لا يلجأ الى لغة الخطابة الا نادرا ، بل تراه فى قصصه التاريخى الذى يريد أن يقصه بكل سهولة يعبر عما فى ضميره كما هو فى ضميره لا يجهد فى تفخيمه ولا تجميله ويحكى القصة التى وقعت كما وقعت من غير حاجة لالحاق كل عمل منها بالصفات والمترادفات التى يضعها بعض الكتاب فى كل المواضع ولو مع عدم لزومها

اذن فهو انما يريد من كتابته أن يؤدى فكرته « من حيث ترتيبها وسبكها فى عبارة سالمة من الركاكة والتعقيد ــ كما يقول ــ اما من يكون مرماهم فى التأليف بيان قدرتهم على الانشاء والغوص على المعانى العويصة والالفاظ الغريبة فهؤلاء وأمثالهم يكتبون لأنفسهم او لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل ولكن من غير الخدمة العامة . . »

وقد تعرض الدكتور هيكل فى بعض مباحثه عن مقارنات بين طريقة جرجى زيدان فى كتابه تاريخ الادب العربى وبين طريقة مصطفى صادق الرافعى

وأبان الفرق بين الطريقتين « هو أول من تعرض لهذا التاريخ على طريقة تحاكى طريقة البحث الحديث فى البعد عن التعصب وفى تحرى الحقيقة لذاتها . كان الفرق بين كتابه وكتاب الرافعى أن هذا الاخير كان يعتبر العرب أمة بعثت بها السماء وخلقها الله خلقا خاصا . وتعتبر اللغة العربية لغة سماوية ليس بين لغات الارض شيء يضارعها جمالا وعظمة . أما جرجى زيدان فكان متحللا من هذه الاعتبارات وكان ينظر للغة العربية والادب العربى نظرة موضوعية ومتجها على ضوء الطرائق الحديثة ، يشك فيما يرى مجالا للشك فيه من أدب الجاهليين وغير الجاهليين ويثبت ما يرى اثباته من أدب هؤلاء وأولئك

وكان الى هذا يختلف أسلوبه الكتابى عن أسلوب الرافعى كاختلافهما فى أسلوب التفكير . كان أسلوب جرجى زيدان أسلوبا صحفيا لا يمتاز بمتانة الديباجة ولا بروعة البيان ، وان كانت فيه

بساطة ويسر يجعلانه قريبا من افهام الناس جميعا .. »

ونحن مع فريد وجدى فى أن جرجى زيدان هو أول من وضع تاريخ الادب العربى على النحو الذى يعرفه المعاصرون من معنى هذه الكلمة ، وهو بهذا الوضع أمكن أن يثمر ثمراته التى نقتطفها منه جنية يانعة اليوم « وهذا العمل وحده يكفى لبناء صرح من المجد للرجل الذى قام به وحده فما ظنك وهو ليس كل ما أنتجته المعية جرجى زيدان فى ثلث القرن الذى أمضاه من حياته فى خدمة الادب .. »

هذا ولا شك أن جرجى زيدان « قد وقف فى طريق فاصل فتخير سبيله — كما يقول خليل مطران — بين طريقين ثم اختار الطريق الاكثر مشقة ، فهو اما أن يكون كاتبا محض أديب يسعى لمجاراة أعلام النهضة البيانية فى وقته . واما أن يكون كاتبا يعنى المادة العلمية التى تغذى الادب وتجعل من البيان خير وسيلة فى أمة قريبة عهد بنهضتها لتعيش على حقائق ماضيها وجلائل الوقائع فى تاريخها ما يكون خير معوان لها على استكمال رسائلها للحياة الجديدة .. »

الصحفى

لم يكن العمل الصحفى الذى باشره جرجى زيدان بانشاء «الهلال» عام ١٨٩٢ هو عمله الصحفى الاول . ذلك انه عندما حضر الى مصر عام ١٨٨٣ ليتم تعلم الطب فى كليــة الطب المصرية ولم يتحقق له ذلك اتجه الى العمل الصحفى فى جريدة الزمان اليومية التى كانت تصدر فى القاهرة فأمضى فى العمل فيها عاما أو بضع عام

وعاد جرجى زيدان بعد ذلك فعمل مديرا لمجلة المقتطف عامين كاملين (١٨٩٠ — ١٨٩١) ومن هاتين التجــربتين كون فكرته فى اخراج « الهلال » فصدر مخالفا تمام المخالفة لاتجاه «المقتطف» الذى كان مجلة علمية زراعية بينما كان « الهلال » مجلة أدبيــة تاريخية وليس شك فى أن تجربة العامين اللذين قضاهما «جرجى زيدان» مديرا للمقتطف قد هيأت فى ذهنه الخطوط العامة لتحقيق فكرة انشاء مجلة شهرية تسد الفراغ فى الجانب الآخر الذى لم يكن فى وسع « المقتطف » أن يسده ، ذلك أن « المقتطف » كان صورة من شخصية منشئه « يعقوب صروف » الرجل « العالم » وكان طبيعيا أن يكون « الهلال » صورة من نفس صاحبه « المؤرخ »

ولسنا ندرى متى فكر « جرجى زيدان » فى انشــاء الهلال . ولــكن لا شك انه كان حريصا على أن ينشر الثقافة التى تصــدى للعمل لها على أوسع نطاق ولم يكن « الـكتاب » وحده كافيــا لتحقيق ذلك ، وكان لا بد ان يربط نفسه بالقارىء على صــورة أكبر صلة وأوسع نطاقا فكان لا بد من انشاء هذه « المجلة »

ولقد ثابر جرجى زيدان على اخراج المجلة . وبذل الجهد وتحمل الــكثير من التضحيات حتى نجح الهلال نجاحا منقطع النظير واصبح له قراء فى جميع بقاع العالم

كان جرجى زيدان فى سن الحادية والثلاثين عندما أصـــــدر

الهلال . وكان فى ذلك الوقت قد اختزل الحياة فى رحلات متعددة الى لندن والخرطوم والقاهرة والتقى بعدد كبير من العلماء والاعلام. ودرس لغات كثيرة ، وقرأ كتبا مختلفة فى التاريخ والادب والاجتماع وتسلح بهذا الزاد كله فى سبيل عمله الجديد ، وكان له من شخصيته المتزنة ، وعقليته المركزة ، ونفسه المنصرفة الى العمل العازفة عن الاهواء والبريق ما هيأ له النجاح فى عمله الجديد ، وهو كما صوره « طه حسين » أحس حاجة الشرق الى هذه المجلة وأحس قدرته على انشائها وان انشاءه لها عام ١٨٩٢ كان حدثا من الاحداث الادبية ذات الخطر البعيد ..

وقد صدر العدد الاول من الهلال فى أول سبتمبر عام ١٨٩٢ فى ٣٢ صفحة طبعه فى مطبعة صغيرة ، يحتوى على خمسة أبواب : (١) اشهر الحوادث وأعظم الرجال (٢) المقالات (٣) الروايات (٤) تاريخ الشهر (٥) منتخبات من الاخبار والتقاريظ

وأعلن انه يصدر مرة كل شهر بمعدل ١٢ عددا فى السنة تبتدىء فى سبتمبر وتنتهى فى اغسطس . وفى خلال السنة الاولى ظهرت رغبة القراء فى زيادة حجم الهلال واتساع مادته

وفى السنة الثانية ظهر « الهلال » مرتين فى الشهر : الاولى فى أوله ، والثانية فى منتصفه وأصبح عدد أجزاء الهلال فى السنة ٢٤ عددا كل جزء يحتوى على ٣٢ صفحة وقد زاد بابا سادسا هو باب : (السؤال والاقتراح) مع بقاء اشتراكه ٥٠ قرشا وفى السنة الثالثة زاد الهلال ١٦ صفحة (٨٠ صفحة فى الشهر) واضيف اليه (باب الاخبار العلمية) أدرج فيه ما كان يحدث فى العلم والصناعة من المبتكرات والاختراعات والاكتشافات

فى السنة الرابعة أدرج فيه قسما من فصول رواية تاريخية غرامية بعنوان : « أرمانوسة المصرية » وصار ينشرها تباعا

وزاد فى السنة الخامسة باب «مشاهير العصر» فيه رسوم مشاهير العصر الاحياء

وظل الهلال يصدر فى موعده دون تخلف ، وفى العام العاشر أدخل

اليه منشئه باب « صحة العائلة » وزاد الرسوم وطبعها على ورق خاص ، وبدأ يقدم هدايا للمشتركين وكانت هدية السنة العاشرة كتاب « التمدن الاسلامى » ثم أضاف باب « عجائب المخلوقات »

وفى السنة الثانية عشرة أصبح الهلال يصدر عشرة اعداد فى السنة مع بقائه مرتين فى الشهر مع تعويض المشتركين بكتاب فى حجم أجزاء الشهرين

وفى السنة السادسة عشرة زاد باب « غرائب العادات والاخلاق » وباب « أحوال الدول المعاصرة » وفى السنة التاسعة عشرة بدأ الاستاذ اميل زيدان يكتب المقالات وفى خلال العقد الثانى من عمر الهلال ظهرت أسماء عديدة من العلماء منهم المقدسى والدكتور نقولا فياض وحافظ ابراهيم والدكتور شبلى شميل

وظل جرجى زيدان يصدر « الهلال » حتى عدد اغسطس عام ١٩١٤ الذى كتب آخر حرف فيه قبل أن ينتهى أجله فى ٢٢ يولية عام ١٩١٤ وهذا هو العام الثانى والعشرون للهلال

اى انه رحمه الله أصدره ٢٦٤ شهرا « سبتمبر عام ١٨٩٢ — اغسطس عام ١٩١٤ »

وقد توخى مؤسس الهلال « الاسلوب التلغرافى » فى كل ما كتبه مع توضيحه بالصور والخرائط العديدة ، ولعدم وجود محلات زنكوغراف فى مصر فى ذلك الوقت كان يرسل لعمل الاكلشيهات اللازمة فى اوربا

وكان يتولى فى اول انشائه جميع شئونه التحريرية والادارية ، ويشرف بنفسه على أعمال طبعه ، ولما اتسع نطاق المجلة عهد فى ادارتها الى شقيقه ، واستخدم آخرين للاشغال الاخرى ، وعكف هو على التحرير والتأليف ، وعنى عناية عظيمة بالتاريخ ، وعلى الاخص تاريخ الشرق وتاريخ رجاله العظماء ملوك وقادة وفلاسفة ورجال العلم والادب

وقد رسم جرجى زيدان هدفه فى العدد الاول من الهلال (٦ ديسمبر عام ١٨٩٢) فقال :

« لابد للمرء فيما يشرع فيــه من فاتحــة يستهل بها ، وخطــة يسير عليها ، وغاية يسعى اليها اما فاتحتنا فحمدا لله على ما اسبغ من نعمه ، وافاض من كرمه ، والتوسل اليه ان يلهمنا الصـــواب وفصل الخطاب

أما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا والصدق فى لهجتنا والاجتهاد فى ابقاء حق خدمتنا ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة اصحاب الاقلام من كتبة هذا العصر ، من كل صقع ومصر

أما الغاية التى نرجو الوصول اليها فاقبال السواد على ما نكتبه ، ورضاؤهم عما نحتسبه واغضاؤهم عما نرتكبه ، فاذا اتيح لنـا ذلك فقد استوفينا أجورنا فننشط لما هو اقرب الى الواجب علينا

وقد دعونا مجلتنا « الهلال » لثلاثة أسباب :

أولا : تبركا بالهلال العثمانى ..

ثانيا : اشارة لظهور هذه المجلة كل شهر

ثالثا : تفاؤلا بنموها مع الزمن حتى تتدرج فى مدارج الـكمال فاذا ما لاقت قبولا واقبالا أصبحت بدرا كاملا باذن الله .. »

ومن هذا المنهاج يظهر اتجاه جرجى زيدان الصـحفى واضحا ، يهدف الى العمل الثقافى ، ويفهم رسالته فهما عميقا ، ويعرف رغبة القارىء واتجاهه ، ويحرص على ان يؤدى واجبه على أكمل وجه

وقد صور جرجى زيدان علاقته بالقارىء وفهمه لرســـالته فى أكثر من مناسبة :

يقول « ظهر فى نهضتنا هذه مئات من الكتاب والعلماء لم ينبغ منهم فى خدمة الامة الا عدد قليل . وظهر مئات من الجرائد والمجلات لم يبق منها الا عشرات قليلة لا يعد ناجحا منها نجاحا حقيقيـــا الا عشرة واحدة

واذا تدبرت هذا التفاوت فى نجاح هذه المشاريع وسقوطمعظمها لا تجده ناتجا عن تفاوت طبقات الكتاب فى العلم بل عن تفاوتهم فى الشعور بحاجة الأمة وتفاوت اقتدارهم على تطبيق ما يعرفونه عن حاجتها .. »

ويقول « نحن فى حاجة الى العلم لكننا أحوج الى الشعور بحقيقة حالة الأمة بحيث نطبق علمنا على حاجتها • وهذا التطبيق يحتاج الى الحاسة الاجتماعية فى كل جزء منه بل فى كل سطر مما يكتبه المؤلف فى اى موضوع فينبغى له وهو فى مخدعه أن يجرى القلم على القرطاس لكتابة مقاله وأن يتصور القارىء بين يديه ويتململ من كل فقرة معقدة وينفر من كل عبارة غير صريحة وليعلم ان القارىء كالشارى انما يهمه حقيقة ما تحويه تلك المقالة من المنافع الادبية والمادية دون النظر الى زخرف الكلام واذاكان من القراء من تهمه تلك الزخارف فلانه لم يتعود الحقائق بعد فاذا تعودها لا يعطف على سواها •• »

ويقول « للحاسة الاجتماعية دخل كبير فى العلم من حيث تطبيقه على حاجة الأمة فالمشتغل بالعلم لا يكفى أن يكون عالما بل ينبغى له أن يعرف كيف يستخدم علمه أو كيف يخرجه للناس ويكون مفيدا لهم لانه لو أحرز علوم الأولين والآخرين ولم يشعر بحقيقة الوسط الذى هو فيه ويطبق ما يكتبه أو ينشره على حاجات أهله ذهب علمه ضياعا وأضاع وقته سدى •• »

وقد سجل صاحب الهلال مولد الهلال فى كتابه الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية فقال :

« صدر الهلال فى القاهرة ١٩٨٢ لمنشئه مؤلف هذا الكتاب ولا يزال يصدر فيها • وهو يبحث فى الادب والتاريخ والاجتماع والعلم وما يحدث فى الاكتشافات والاختراعات ويتبسط على الخصوص فى التاريخ وفلسفته وفى الابحاث الاجتماعية

•• وفى السنة التى صدر فيها الهلال صدرت مجلة « الاستاذ » للمرحوم عبد الله نديم وهى مجلة أدبية انتقادية لم تتم السنة على ظهورها حتى أقفلتها الحكومة • و « الفتى » لاسكندر شلهوب • و « الفتاة » لهند نوفل وهى أول الصحف النسائية •• »

وذكر صاحب الهلال أول من استخدم كلمة « مجلة » هو الشيخ ابراهيم اليازجى وأن أقدم المجلات التى صدرت بمصر «اليعسوب»

عام ١٨٦٥ ٠ والمقتطف فى بيروت عام ١٨٧٦ للدكتـورين صروف ونمر وهو علمى صناعى زراعى انتقل سنة ١٨٨٦ الى مصر ولا يزال يصدر فيها وهو الآن شيخ المجلات العربية ومجلاته خـــزانة علم وصناعة وزراعة وأدب وشعر ٠ وصدر « الشـــفاء » فى مصر عام ١٨٨٦ للدكتور شبلى شميل »

وقد وصف « أنيس المقدسى » أثر مجلة « الهلال » فقال : الهلال أستاذ الادباء فى الشرق ورائدهم فى مجـــاهل تاريخهم الفـكرى والاجتماعى وللعلامة جرجى زيدان الفضل الاكبر فى تنبيه أبنـــاء العربية الى ماضيهم وتنظيم الوسائل المشوقة لفهم مآثر أسـلافهم واتخاذ ذلك أساسا لحياة أفضل وعمران أكمل ٠ كان يجلو لنـــا تراثنا الماضى فيشعرنا بشىء من الكرامة القومية أو اللغوية

٠٠ قام زيدان والعالم العربى فى حالة من الشعور بالصغار الذاتى يحقر التراث القومى ويعظم ما هو أجنبى ٠ وعرف الغربيـــون ذلك الشعور فى الشرقين فاستغلوه لمآربهم بل تمادوا فى استغلاله حتى صاروا لا يتورعون عن التشامخ عـلى بنى الشرق ولاسيما الناطقين بالعربية وامتهانهم فى عقر دارهم ٠٠

ولم يندفع « جرجى زيدان » اندفاع الشعراء المتحمسين أو الدعاة القوميين أو الزعماء السياسيين بل سلك مسلكا آخر ٠ ســـلك مسلك العالم الباحث فدرس بشغف تاريخ العرب وآدابهم ورأى أن يحمل الى العالم ما وصل اليه البحث والتنقيب

فلما أشرق « هلاله » رأى الناس فيه ما لم يروه فى كتـــاب أو مجلة . رأوا فيه روحا شرقية بحاثة تتغلغل فى ثنايا المكتبات العربية القديمة وتستخرج منها غذاء شهيا للنفوس

٠٠ كان مؤرخا نزيها يحاول الوصول الى الحقيقة مهما كانت ٠ لم تكن بنت ساعة من ساعات الانفعال أو رهينـــة دعاية من الدعايات بل مستقاة من منابع الاستقرار

ونظم للمتأدبين والبـــاحثين ما كان مبعثرا فى طيات الـــكتب والمحفوظات فأزاح عن تراثهم الفـكرى غواشى الظلمات وغرس فى

نفوسهم بذور الثقة بالنفس ٠٠ اذ أراهم ما كان لاسلافهم من آثار فى تاريخ الفكر العام ٠٠ »

وهذا حق لا شك فيه يمكن على أساسه أن نقول ان كل كتاب العربية فيما بعد ظهور « الهلال » عام ١٨٩٢ هم تلاميذ لجرجى زيدان وآثاره ٠٠

وقد صور انطون الجميل أثر « الهلال » فى المحيط العربى العام ، هذا المحيط الممتد الى المهجر العربى فى أمريكا الجنوبية ٠٠ فيقول « ان رجلا هاجر من الشرق منذ أربعين سنة تلقى خطابا من والده يقول له فيه : يا بنى أخشى أن تنسى فى ديار الغربة لغة قومك وعادات عشيرتك لانك لا تزال صغير السن ٠ لذلك اشتركت لك بمجلة « الهلال » لتظل تطالع منها لغتنا فلا تنساها وقوامها أنباء شرقنا العزيز

وقد لقى هذا الرجل انطون الجميل فى احدى البواخر المسافرة الى أوربا فلما تسمى له عرفه وقال له « انى عرفتك عندما تسميت لانى قرأت لك فصولا فى الهلال وهكذا ترانى بعد غياب أربعين سنة أحتفظ بلغتنا ٠٠ »

وقد أرخ « طه حسين » مجلة الهلال وتطورها فقال « يكفى أن تنظر الى الاجزاء الاولى من هذه المجلة والاجزاء الاخيرة لتلاحظ أن منشىء الهلال كان يكتب مجلته كلها على وجه التقريب ٠ وانصاحب الهلال اميل زيدان بعد الحرب الاولى لم يكن يكتب فيها الا قليلا جدا ٠ ومعنى ذلك أن مجلة الهلال لم توجد لنفسها القراء فحسب وانما أوجدت لنفسها القراء والمحررين أيضا ٠٠

وهى لم توجد القراء والمحررين فى البيئة المصرية وحدها ولا فى البيئة الشرقية وحدها وانما أوجدتهم فى بيئات بعيدة جدا عن مصر والشرق فى البيئات العربية الامريكية ٠٠ »

ويرى « طه حسين » ان جرجى زيدان من رجال ذلك الجيل الساخط وانه ثالث ثلاثة هما محمد عبده وقاسم أمين وجرجى زيدان « وان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه كما كان محمد عبده رجلا

من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكان الاصلاح الدينى وحرية الرأى نتيجة لسخطه وطموحه وقل مثل ذلك فى قاسم أمين • وقل مثله فى البارودى وحافظ وشوقى وغيرهم من الذين قامت عليهم نهضتنا المعاصرة »

ويرى « طه حسين » ان مجلة الهلال « كانت مصدر أحداث أدبية خاصة كان لها أبعد الأثر فى حياة الادب العربى المعاصر • وقلما يشاركها فيه مظهر من مظاهر النشاط الادبى الحديث • فليس من الغلو فى شيء أن يقال ان منشىء الهلال قد أوجد فى اللغة العربية هذا العلم الحديث الذى نسميه تاريخ الادب ، لا بتأليف كتابه المشهور فحسب • ولكن بالبحوث الكثيرة التى نشرها فى الهلال • وبالكتب التى أرخ بها الامة العربية والحضارة الاسلامية

على أن منشىء الهلال لم يقف عند هذا الحد ولكنه بسط العلاقة بين الشرق والمستشرقين وألغى المسافة أو كاد يلغيها بين العلماء الدارسين للغة والادب فى الشرق والعلماء الدارسين للغة والادب فى الغرب • وأزعم أنه هو الذى مهد لهذه الآثار وفتح للشرقيين هذا الباب من أبواب العلم •• »

ثم يصور أسلوب جرجى زيدان فى هلاله وكتبه فيقول « كان جرجى زيدان شعبيا فى علمه وفى أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عما يتعرض له العلم الشعبى والادب الشعبى أحيانا من الاسفاف والابتذال ، فكان له من أجل هذا أعمق الأثر فى نفوس الذين قرأوه وفى عقولهم أيضا • وما أسعد الذين يستطيعون أن يحصوا لانفسهم بين العلماء والادباء وأوساط المثقفين تلاميذ كالذين تستطيع أن تحصيهم لجرجى زيدان »

أما « أحمد أمين » فيقول ان جرجى زيدان بعد أن عمل عامين فى « المقتطف » خرج وفى ذهنه صورة كاملة لما يريد أن يعمله مسترشدا بتجاربه فى الحياة وتجاربه فيما زاول من أعمال مهتديا بما تجلى له من ملكاته وتفاعلها مع ظروفه الخارجية »

وقد رأى قراء العربية لا يقرأون «فليحبب اليهم القراءة بالموضوعات

الجذابة والاسلوب السهل والتعلم بالقصص » . وقد وجـــد قوما « يحاربونه لانه يؤرخ الاسلام وليس مسلما ويبتدع طرقا غير التى ألفوها . والمحافظون دائما ـ أعداء الجديد ـ فليستفد من نقدهم وليعف عن سبهم ، وليتركهم للزمان يأكل هجـومهم وشـــتمهم فالقانون الطبيعى ان الزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض»

وصور أحمد أمين متاعبه الصحفية فقال انه صادف معـــاملات غاشة خادعة وحيلا وسرقات تجوز على الحذر . « فليعد من يثق به من أقاربه ليتولى عنه هذا شيئا فشيئا حتى يفرغ للعلم »

أما مقالاته الادبية فقال عنها أحمد أمين انها « تغلب عليهـا نزعة الاصلاح ومعالجة المشاكل الاخلاقية والاجتماعية واللغوية » فقدكتب فى « تكوين الاخلاق والعوامل الخفية فى الهيئة الاجتماعية والحقائق والاوهام واللغة الفصحى والعامية . وتغلب على مقالته النظرة التاريخية للموضوع والتسلسل المنطقى للتفكير . والنمط التعليمى فى تحـديد الموضوع الذى يريد الكلام فيه »

وقال أحمد أمين انه « قد يؤخذ عليه عدم الجزالة فى تركيب جمله وعدم القوة فى أسلوبه ، وعدم الاناقة فى تأدية معانيه . ولكنه كان يعمد الى ذلك عن مذهب فى الكتابة وعقيدة فى الاسلوب واختبــــار متعمد للمنهج الذى يسير عليه .. »

وقد سجل « جرجى زيدان » مذهبه فى كلمات « .. يجب أن تكون عبارة الكاتب فى البحوث التاريخية والادبية عبارة بسيطة واضحة . سلسـة خاليـــة من كل تعقيـــد حتى تكون المعانى جليـــة للمطالع كل الجلاء . لا تحتاج فى فهمها الى التوقف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة والا فان عجز الكاتب عن ذلك يعد نقصا فى واجبات صناعته .. »

وقد رد على المستر ويلكوكس يخطئه فى رأيه عن اللغــة العاميـــة ويدافع عن اللغة العربية ويقول « انه من الممكن التقرب الى الافهـــام بتجنب الالفاظ الغريبة والعبارات المعقدة .. »

وقد وصف جرجى زيدان الكاتب الذى يكتب للناس لا لنفسه بأنه يلزمه أن يتصف بصفات ثلاث

١ ـ أن يختار الموضوع الذى يرى الأمة فى حاجة اليه

٢ ـ أن يسكبه فى قالب سهل سالم من الركاكة والتعقيد ، جار مع روح العصر ، لا كأسلوب هؤلاء الكتـــاب الذين يحسبون اللغة وقفا لا يحل بيعه أو التصرف فيه • وفاتهم اناللغة خاضعة لناموس الارتقاء « تتغير بتغير أحوال الاجتماع فتنمو بتولد الالفـاظ الجديدة للمعانى الجديدة والتراكيب العصرية • ومن حاول الوقوف فىسبيل هذا التغيير فقد عارض الطبيعة وهو لا يستطيع أن يقف فى سبيلها ولكنه يفسد عمله

٣ ـ أن يكون صادق اللهجة صريحا فى قوله خاليا من الغرض • وهذا الاخير من أصعب الشروط اذ لا يسهل على الانسان أن يجـرد نفسه من الروابط الدينية والاجتماعية التىتتجاذبه وقد رضعها مع اللبن وتمكنت من نفسه بتوالى الاعوام •• »

وليس من شك أن هذه المعانى خليقة بأن تكون دستورا للصحافة الادبية كتب منذ أكثر من ستين عاما وما يزال حيا نابضا بالحيـــاة يهدى كالمنار كل من عمل فى هذا الميدان ••

الروائى

بدأ جرجى زيدان (١) يكتب القصة التاريخية التى اشتهر بهـــا والتى ابتدعها فى الادب العربى الحديث عام ١٨٩٥ مسلسلةفى أعداد الهلال • وكانت قصته الاولى « ارمانوسة المصرية » وهى تصورقصة فتح العرب لمصر • ثم توالت قصصه حتى أكمل التاريخ الاســلامى كله حتى آخـــر عصر الاتراك العثمانيين فى اثنتى عشرة « رواية » ترجمت الى اللغات الاوروبية والتركية والانجليزية والفرنســـية والفارسية

ولقد كان هذا الاتجاه يمثل جانبا آخر من شـــخصية « جرجى زيدان » العالم والمؤرخ فما هو الهدف الذى دفعه الى هذا الاتجاه اذن وماذا كان يرمى اليه : لندع الذين أرخوه يتحدثون عن هــذا اللون من أدب جرجى زيدان :

يقول « أنيس المقدسى » :

« على ان خدمة زيدان لم تقتصر على أهل البحث وطلاب التخصص بل تتناول جمهرة المثقفين من الناشئة • وذلك بما فصـــله فى تلك السلسلة الروائية التاريخية التى تعد عملا أدبيا ممتازا • فهو فيها يجعل حقائق التاريخ أدبا شائقا • ولا أعرف سلسلة أدبية كان لها ما كان لهذه من التأثير الصالح فى نفوس الجمهـــور اذ حببت اليهم دراسة ماضيهم ومعرفة أمجادهم ودفعتهم الى التاريخ عن طريق الفن الخلاب ••

ويقول « انطون الجميل » :

« رأى أن التاريخ يصعب تعميم فوائده اذا آقتصر نشره على كتب التاريخ • فعمد الى وضع حقائقه فى قالب روائى فكان فارس الميدان الذى لا يلحق غباره فى تأليف الروايات التاريخية

---

(١) اقرأ كتاب « نزعات التجديد فى الادب العربى المعاصر » لانور الجندى

ويقول « أحمد أمين » :

« رواياته كلها روايات تاريخية اختار لها وقائع بارزة فى تاريخ الاسلام ودرسها فى سعة وعمق ، ثم أعمل فيها خياله فخلق لهـــا أشخاصا ورتب وقائعها وأثار لذة القارىء بأحداث الحب والغرام • فمزج الواقع بالخيال والتاريخ بالقصص•وهو فن عنى به أدباءالغرب وألفوا فيه الروايات التاريخية التمثيلية وغير التمثيلية

وقلده فى ذلك « جميل مدور » فى كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام ، وهى رحلة صور فيها حالة المملكةالاسلامية فى أيام هارون الرشيد • ثم بدأت كتابة القصص مقتبســة من تاريخ العـــرب : كقصص السموأل والمهلهل وشهداء نجران ونكبة البرامكة وحـرب البسوس

وقد أشـــار أحمد أمين الى أن قصص جرجى زيدان كانت تتسم « بمتانة الحبك وحسن السبك والاجادة فى التشويق » وانه « صور عصور الاسلام المختلفة فى ممالكه المختلفةمسلسلة بعضها فىأحداث الشام وبعضها فى العراق ومصر والاندلس

وهو يرمى الى تفهيم أكبر عدد ممكن من قراء العربيـــة للعصور التاريخية الاسلامية والتمهيد للناس ليذوقوا التاريخ بحثـــا كما تذوقوه رواية ولو انسىء فى عمره لأتم برنامجه الواسع •• »

أما « طه حسين » فانه قد شغف فى شبابه الباكر بقصص الهلال « .. مهما انسى فلن انسى انى كنت فىايام الصبا والشباب ابدا فى قراءة القصة التاريخية من قصص جرجى زيدان فلا أكاد أتقـدم فى قراءتها شيئا حتى أفتن بها واذا هى تشغلنى عن دروس الازهر حتى أتمها واذا هى تأخذ على تفكيرى وقتا طويلا بعد اتمامها ••

ويرى طه حسين ان « القصص التاريخى » هو عمل بعيد الأثر فى حياة الادب المعاصر « وانه أثر أدبى خالص لم يعرف حقـــه من الدرس والاكبار » وانه « سجل هذه المحاولة أولا على أنها نحو جديد من أنحاء الانتاج الادبى فيه احياء للتاريخ العربى وفيهتوجيهللشباب وفيه بعد هذا كله تأثير قوى فى الخيال .. »

ويقول طه حسين ان النقاد يستطيعون أن يقولوا ما يشـــاءون « ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو ان القصص التاريخى الذى أصدره جرجى زيدان قد كان من أهم المؤثرات التى أتاحت لهذه النهضة أن تؤتى الثمار القصصية التى يستمتع بها قراء العربية الآن .. »

وقد سجل « جرجى زيدان » تاريخ قصة « أرمانوســة المصرية » فقال « ظهرت الطبعة الاولى من هذه الرواية سنة ١٨٩٥ بعد نشرها فى السنة الرابعة من الهلال . وان رواجها يومئذ واقبال الناس على الهلال بسببها فى تلك السنة حبب الى تأليف سلسلة روايات تاريخ الاسلام . ولم يكن ذلك قصدنا يوم ظهور الرواية فعـدنا الى تأليف رواية فتاة غسان وجعلناها الحلقة الاولى لانها تبحث فى ظهور الاسلام وفتوح العرب فى الشام والعراق . وهذه ارمانوسة الحلقة الثانيـة وتبحث فى فتح مصر

وقال فى مقدمة رواية « أبو مسلم الخراسانى »

« شرعنا فى تأليف سلسلة روايات تاريخ الاســلام على أن ننشر منها كل سنة حلقة نضمنها واقعة من الوقائع الكبرى التى أثرت فى تاريخ الاسلام تأثيرا يذكر . وكنا قبل الشروع فى هـذه السلسلة نؤلف الرواية بعد الرواية فى مواضـيع مستقلة كرواية « الملوك الشارد » و « أسير المتمهدى » و « جهاد المحبين » ولم ننشر شيئا منها فى الهلال حتى ألفنا رواية «أرمانوسة المصرية» سنة ١٨٩٥ وهى تتضمن فتح المسلمين مصر على يد عمرو بن العاص عام ١٨ هـ فلاح لنا أن ننشرها ملحقة بالهلال على سبيل التجربة فألحقناها بأهلة السنة الرابعة ولبثنا نترقب ما يكون من وقعها عند المطالعين . فرأينا من اقبالهم على الهلال فى تلك السنة ما لم نعهـده من قبل . ولم تبلغ منتصف تلك السنة حتى تضاعف عدد المشتركين ونفذ ماكنا ادخرناه من أعداد الهلال للمجموعات فى المستقبل — ولا تزال السنة الرابعة نادرة الوجود دون سائر سنى الهلال الى الآن . ناهيك بما جاءنا من كتب الادباء يستحسنون هذه الخطة ويحرضوننا على نشر الروايات التاريخية الاسلامية فى الهلال . واقترح علينا أحد الاصـــدقاء أن نجعل تلك الروايات متسلسلة من أول ظهور الاســـلام — فننشر

التاريخ الاسلامى فى روايات غرامية تشويقا للمطالعين على نحـو ما فعلناه فى رواية « أرمانوسة » فاستحسنا هذا الرأى وعزمنـا على العمل به . وبما أن رواية أرمانوسة المذكورة تشتمل على فتح مصر فهى لا تصلح أن تكون الحلقة الاولى من تلك السلسلة فجعلناها الثانية وألفنا رواية «فتاة غسان» ضمناها ظهور الاسلام وفتوح العراق والشام وجعلناها الحلقة الاولى ثم الفنا رواية «عذراء قريش» وجعلناها الحلقة الثالثة ثم « ١٧ رمضان » الحلقة الرابعة

وقد لاقت هذه الروايات اقبالا وترجمت الى عديد من اللغات

وقد تدرجنا فى حلقات هذه السلسلة بنشر تاريخ الاسـلام من ظهور النبى وفتح الشام والعراق الى فتح مصر ثم ما كان من الفتنة فى أيام عثمان وانقسام المسلمين الى مقتل الامام على وانتقال الخلافة من الراشدين الى الامويين ثم مقتل الحسين فى كربلاء . فتأييد الدولة الأموية من زمن عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف . وما كان بعد ذلك من فتح الاندلس على يد طارق بن زياد ثم فتحهم بلاد الافرنج الى الواقعة الشهيرة بين شارل مارتل وعبد الرحمن الغافقى وأخيرا انحطاط شأن بنى أمية وسقوط دولتهم وقيام دولة العباسيين على يد أبى مسلم الخراسانى . . »

ثم أتم جرجى زيدان عمله فى ست حلقات أخرى : العباسة أخت الرشيد والأمين والمأمون وعروس فرغانة وأحمد بن طولون وعبـد الرحمن الناصر والانقلاب العثمانى

وقال فى موضع آخر . . . « ان تاريخ الاسلام عبارة عن تاريخ الشرق الحديث أو هو تاريخ العالم كله بعد عصر الرومان والفرس فيجدر بأبناء الشرق درسه والاعتبار به

وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على اسلوب الرواية افضل وسيلة لترغيب الناس الى مطالعته والاستزادة منه . خصوصا لاننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هى عليـه كما فعل بعض كتبة الافرنج وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة

فجره ذلك الى التساهل فى سرد الحوادث التاريخيـة بما يضـل القراء واما نحن فالعمدة فى رواياتنا على التاريخ وانما نأتى بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج فى خلالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها فيصح الاعتماد على ما يجىء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص . الا ما تقتضيه القصة من التوسـع فى الوصف ممـا لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدها بيانا ووضوحا بما يتخللها من وصف العادات والاخلاق »

ولا شكان هذا التصوير الصادق لمهمة مؤلف الرواية التاريخية كما حاولها جرجى زيدان يجعلنا نؤمن تمـاما بأنه ظل بالرغم من كتـابة الرواية المؤرخ الغيـور على النص التاريخى . الأمين عليـه الذى لا يرضى أن يضحى بالحقيقة التاريخية فى سـبيل الفن أو الخيال القصصى

وقد استطاع جرجى زيدان أن يحقق ذلك فى رواياته جميعا كما أراده وكما صوره فى مقدمة الطبعة الثانية لقصة الحجاج بن يوسف التى طبعت سنة ١٩٠٩

وخلاصة ذلك كله أن جرجى زيدان هو رائد القصة التاريخية التى جرى على نسقها فيما بعد «جميل مدور وانطون الجميل »ومضى فيها على أوسع نطاق.« محمد فريد أبو حديد » الذى يعد تلميذ جرجى زيدان فى هذا اللون

وقد حرص « جرجى زيدان » على الوقائع التاريخية فلم يحاول التصرف فيها ولعله من العجيب لتحقيق ذلك أنه أورد فى نهـاية صفحات قصصه المصادر التاريخية للمادة التى اعتمد عليها فى بناء الجانب التاريخى من القصة ، ولا شك أن هذا العمـل كان بارعا وباهرا فى تحبيب الجماهير الى التاريخ وما زالت هذه الروايات تلقى مزيدا من تقدير القراء بالرغم من مرور أكثر من خمسـين عاما على ظهورها ، وبالرغم من تطور الاسلوب القصصى.وقد لقيت

رواجا كبيرا عندما قامت دار الهلال باعادة طبعها عام ١٩٥٣ و١٩٥٤

وليس هذا العمل الروائى بالسهولة التى يمكن تصورها

فان جرجى زيدان ينقلك الى جو هذه البلاد فى فترات حوادث الرواية ويجعلك تعيش فى نفس العصر بتقاليده وصوره ومظاهره. ثم هو لا يكتفى بذلك بل يجعل لقصته حياة نابضة ومقدمة ونهاية وحبكة وعقدة ... وقصـــة حب تنتظمها من أول صفحاتها الى آخرها

الرائد

« ... لو قدر لى أن أعدد الافذاذ الذين نشـأوا فى الشرق فى الخمسين سنة الأخيرة وافادوه بكتاباتهم وآرائهم لرأيتنى مضطرا أن أضع جرجى زيدان فى مقدمتهم ، فان الحركة الفكرية التى أحدثها بأعماله العلمية وآثاره الأدبية بعيدا عن الطنطنة والادعاءات لهى كبيرة الى حد أنى أعتبر أن الشرق وان لم يجهل مكانه فانه لم يوفه حقه ، وقل أن تجد أديبا أو كاتبا شرقيا من المعاصرين ليس مدينا لجرجى زيدان بشكر عظيم ان لم يكن على ما حصله من مؤلفاته من المادة العلمية فعلى ما استفاده من مناهج البحث ومصادر المعرفة .. »

هذا الكلام الذى قاله رجل متزن الفكر ضنين بعباراته عن أسلوب المجاملة هو « محمد فريد وجدى » يصور مكانة « جرجى زيدان » كرائد فى ميادين ثلاثة : هى التاريخ والأدب واللغة ، وقد كتب «جرجى زيدان» فى تطور اللغة وما دخل عليها من ألفاظ ومصطلحات وساهم فى تجديدها بنصيب كبير . وزيادته فى القصة التاريخية لا تقل عن هذه الاعمال الثلاثة الكبرى . وقد أجمع على هذا الرأى عدد من الكتاب من مؤرخى الأدب عن هذه الفترة : يقول احمد حسن الزيات : « .. لزيدان شرف الريادة لمنتجعى الادب أو فضل السبق الى فن القصة وحسن القدوة فى مهنة الصحافة وحسن الاستاذية فى الهلال على كل قارىء وتاريخ الادب العربى الحديث يعترف للرجل بكل أولئك »

ويرى « مصطفى لطفى المنفلوطى » أن جرجى زيدان كان رئيس البعثة التعليمية السورية التى وفدت الى مصر فى أواخر القرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييرا كبيرا ، وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل والشجاعة والاقدام والهمة والاستقلال

كان بطلا من ابطال الجد والعمل والهمة والنشاط . يكتب أحسن

المجلات ويؤلف افضل الكتب وينشىء أفضل الروايات ، ويناقش ويناضل ويبحث وينقب ويستنتج ويستنبط ويجيب السائل ويفيد الطالب فى آن واحد . لا يشغله شأن من تلك الشئون عن شأن غيره لا يشكو مللا ولا ضجرا ولا يحس بخور ولا فتور . فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه أن قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتنمية ثم يقوم على نشره واذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل .. »

ويصفه « جبران خليل جبران » بأنه « فكرة متحمسة لا ترتاح الا الى العمل وروح ظامئة لا تنام الا على منكبى اليقظة . وقلب كبير مفعم بالرقة والغيرة »

ويراه « شبلى شميل » مبتدعا له طريقة لم يسبقه اليها احد فى هذه اللغة . اذ كسا كل هذه المباحث القديمة ثوبا قشيبا لفت الناظر اليها وحبب الى القارىء مطالعتها » وانه « أنجز فى أقل من ربع قرن ما يعجز الاقران عن الاتيان بمثله فى قرن وتمكن من اتمام فكرته فى خدمة آداب اللغة »

ويصفه نعوم شقير بانه « كان حريصا على الوقت لا يترك برهة تذهب سدى ، وأحب الاشياء اليه العمل ، ومع ذلك فكان اذا جاءه صديق فى ساعة العمل رحب به واقبل عليه يحدثه كأنه لا شغل له سواه . وله يوم مخصص للزيارة يحفل بالاصدقاء والخلان يتحدثون فى شئون اجتماعية وادبية ومن أروع خلقه حب الاستقلال واحب خلق اليه الصدق . يكره التظاهر والمباهاة ويبعد عن الخصام .. »

ويراه « داود بركات » منارة من المنائر التى قامت فى مصر وارسلت أشعتها الى العالم العربى بل الى العالم الشرقى كله ، ولم يجهل الغرب جرجى زيدان وفضله فترجم بعض مؤلفاته وعين عضوا فى جمعياتهم العلمية فأحسن الى أمته بترويج العلم فيها واحسن اليها ببعث ذكرى مجدها القديم فى ذاكرة الغرب

واشار الى أن فضله يبدأ بانة علم نفسه « ويتضاعف هذا الفضل ويعظم ويفخم ويسمو بأنه فى مدى حياته كلها كان معلما لغيره ، وهو

وحده مكتبة ضخمة لا ينقصها علم و لايفوتها فن أو موضوع نافع حتى يصح أن يقال الى كل طالب « عد الى الهلال تلقى ضالتك »

وقد عرف داود بركات جرجي زيدان فى مطلع شبابه « يشتغل لعائلته نهارا ويشتغل لنفسه ليلا ويجمع بين نبضات قلبه ودقائق حياته ، ويجمع بقوة الارادة بين نشاط الشباب ومدارك الشيوخ فكأنه ولد شيخا وبعد أن كان لنفسه وأبويه صار لأمته وللانسانية

ويرى « حافظ عوض » انه لا يوجد فى العالم العربى فى العصر الاخير من ترك كمية كبيرة من العمل العلمى والادب الجدى مثل منشيء الهلال « فان رواياته ومجلدات الهلال ومؤلفاته التاريخية واللغوية والادبية تكون فى مجموعها موسوعات كبيرة

ويقول : انه لولا اننا — نحن المعاصرون له — نعلم علما لامسرب للظن فيه ، انه هو الذى كتب هاتيك المنشئات ورتب أبوابها ، لداخلنا الشك او تسربت الينا بعض الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لانه عمل مستعظم على كاتب واحد

اما « انطون الجميل » فيقول انه راجع العدد الاول من الهلال وقرأ بيان خطة تلك المجلة ثم دارجها فى سيرها فلم يجدها حادت عن الخطة التى رسمها لها منشئها ، وان اسم زيدان فى الادب لايزال مقرونا باسم الهلال

وان جرجى زيدان كتب فى شئون الاجتماع والعمران فلم يقتصر على العموميات بل درس الاصول والفروع ، واضاف الى الحقائق الراهنة : المشاهدات والملاحظات التىأرشده اليها البحثوالاستقراء

وان كتبه عن التمدن وطبقات الامم وعجائب الخلق وعلم الفراسة والفلسفة اللغوية والالفاظ العربية وتاريخ اللغة العربية وتاريخ آدابها ، كلها شاهد عدل على ما اتصف به من الجلد فى التنقيب والثبات على العمل والرغبة فى الافادة والسعى وراء الحقائق »

ومن هذه « اللمحات » كلها يحق لنا أن نكرر ما ذكرناه فى كتابنا « اضواء على حياة الادباء المعاصرين » من ان جرجى زيدان يقف

على احدى القاعدتين اللتين أشرق عليهما فجر النهضة الفكرية فى الشرق : وهما قاعدة « لطفى السـيد » الذى رسم صـورة « المصرية » وفتح باب النقد الادبى ، وقاعدة « جرجى زيدان » الذى أدخل الى الفكر العربى المعاصر الطريقة العلمية المدنية بالبحث ووضع الخطوط الاولى للابحاث التى جاءت من بعده فى تاريخ الاسلام والادب العربى

آراؤه

تتسم آراء « جرجى زيدان » بالوضوح والاعتدال والعمق ، وهى ليست آراء كاتب عاش بين الكتب وحدها واغلق عليه برجه العاجى كعدد كبير من كتاب الشرق ، وانما كان جرجى زيدان عالما بالحياة خبيرا بها عميق الخبرة ، واسع الافق ، منبسط النفس ، لقى فى حياته العديد من الازمات والمشاكل والمتاعب فاستقبلها بصدر رحب ، وتخلص منها بالحكمة والاتزان ، وعاش حياته صريحا واضحا صادقا ، يرى الخط المستقيم هو اقرب صلة بين نقطتين ، عالج الحياة معالجة واقعية ، واعطته اسفاره ومقابلاته ومعاشرته للطوائف المختلفة فهما للمجتمع العربى وحنكة فى فهم المشاكل وعلاجها ولذلك كانت كلماته كلها من معين الحكمة والتجربة

كقوله : لا يصح الا الصحيح ولا يبقى الا الابقى

- الانتقاد اكثر فائدة من التقريظ
- اعقل الناس أعذرهم للناس

وقد فصل هذا المعنى الاخير فى سطور عميقة قال فيها :

« اساس هذه الفضيلة ان يعرف الانسان قدر نفسه ولا يستطيع ذلك غير العاقل المتبصر ، لأن الناس فطروا على الا يروا عيوب انفسهم ، واذا كان بعضها ظاهرا ظهورا واضحا لا سبيل الى انكاره التمسوا لانفسهم عذرا عليه أو كابروا فاذا عرف الانسان مقدار نفسه عرف ضعف الطبيعة البشرية وادرك نقائصها واتضحت له الثلوم التى يجرى الخصام منها اليه رغم ارادته . فاذا وقع صاحبه فى مثلها هان عليه أن يعذره ، فالعاقل من لا يبدو منه ما يسىء الآخرين لئلا ينال جزاءه واعقل منه من يقدر المسىء اليه لضعفه أو اضطراره أو جهله

واذا تدبرت ما يقع بين الناس من الخصام أو النزاع رأيت

معظمه ناتجا من سوء الظن لقلة صبر الانسان على التدبر فيسرع بالحكم على صاحبه ويبالغ فى تعنيفه

ويقال ذلك فى انتقاد الناس على الشعراء والخطباء ويغلب على أولئك المنتقدين ان لم يكونوا قليلى المعرفة كبار الدعوى

ويندر أن يجتمع كبر الدعوى وسعة العلم فى واحد ، لأن الانسان كلما زاد علمه زاد اتضاعه لتحققه ــ ان ما تيسر للانسان معرفته من أحوال الطبيعة ونواميسها لا يقاس بما بقى غامضا منها ، ويشعر بتوالى البحث بزيادة جهله »

وهذا المقال يعطى صـــــورة « طابع » جرجى زيدان الهادىء المتواضع الغنى النفس الذى لقى من النقد والصراع والجدل الكثير فواجهه بهذا الاسلوب الحكيم ، أسلوب العلماء والعقلاء ذوى الكرامة

وهو يرى أن « الدين » أساس للشخصية الانسانية ، وخاصة شخصية العالم « قد يظن البعض أن التربية تغنى عن الدين ، وهو وهم باطل ، الدين هو الرادع الوحيد لهذه المطامع ، ان بعض الناس الذين لم يدركوا من العلم الا قليلا يسبق الى أذهانهم ان الـكفر من ضرورات العلم .. »

وهذا القول يمثل الطابع السوى فى نفسيـــة « جرجى زيدان » ويزيده قوة وتماسكا ايمانه بالاعتدال فى قوله تحت عنوان : «احفظ شبابك والـكهولة تحفظ نفسها »

« .. احتفظ بالعفة والاعتدال واحذر من الاسراف فانه ذاهب بالحياة ، احتفظ بشبابك ولو تكلفت فى بادىء الرأى الظمأ ، احتفظ به انه زاد الشيخوخة »

« اذا قرأت ترجمة رجل عظيم أنهض نفسه من دركات الذل والفقر الى مراقى المجد والسؤدد بجده واجتهاده فاعلم انه انما اكتسب ذلك بالنشاط والاقدام والصبر على مضض الايام وذلك لا يكون الا مع العفاف .. »

ولا شك ان هذا المعنى مطابق تماما لشخصية «جرجى زيدان» وهو يرى أن « الاخـلاق تمثـل الامم اكثر مما تمثلها سـائر

المواهب ، والامة انما ترتقى او تسقط ، وتسود أو تذل بأخلاقها ، لا بعلومها وثروتها »

ولطالما تحدث عن الشجاعة الادبية « وهو يرى أن قوامها الجراة فى الراى والصراحة فى القول ، اى أن يبدى الانسان رأيه بلا خوف ولا حذر »

وهو يؤمن بأن الاعتراف بالخطأ من أبلغ صفات الشجاعة الادبية « .. الاعتراف بالخطأ من اكبر دلائل الارتقاء ، وهو لا يصدر الا عن نفس كبيرة وخلق قوى لأن الاعتراف بالخطأ صواب ، والاقرار بالعجز قوة ، وهل أصغر نفسا ممن يعرف خطأه ويحاول كتمانه بالمكابرة .. »

ويؤمن جرجى زيدان بالثبات ويرى انه قوة فى النفس تساعد صاحبها على مقاومة العوارض وهو ينطوى على متانة الخلق والاعتماد على النفس وسعة الصدر

ويؤمن بالناس ويرى أن العمل الخالص لهم هو أرقى أهداف الحياة « ان لكل انسان مطلبا رئيسيا من مطالب الحياة يوجه اهتمامه ويجعل مدار سعيه اليه وهو نائله ، وافضل هذه المطالب ما كان نيله فائدة للناس وأقبحها ما كان فيه ضرر لهم .. »

ولا يقف فهم جرجى زيدان عند أمور الحياة العامة بل يتغلغل فى ادق السرائر « كالحب » مثلا فيرى « انه كثير . امايكون قهريا غير اختيارى وان يكن فى أوله اختياريا ، على انه راجع مع ذلك الى حب الذات لأن الرجل يرى فى حبه للمراة ارتياحا تطلبه نفسه فاذا أحبها انما يحب هوى نفسه »

ويبغض جرجى زيدان « الكبرياء » ويراه عقبة من عقبات الرزق فى سبيل هذه الحياة « فلو عرفت صانعا مهما بلغ من مهارته فى صناعته وكان متعجرفا كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الانتفاع بصناعته فرارا من معاملته .. »

حياته الخاصة

لا شك أن الرجل الناجح فى الحياة ، بعيد الاثر فيهـا ، الذى يحفر اسمه على الشجرة الضخمة التىاسمها « التاريخ » بحروف بارزة ، لا شك انه يكون سعيدا فى بيته وحياته الخاصة وبين أهله ، محبا محبوبا

و « جرجى زيدان » هذا الانسان النقى القلب المسالم الوديع المحب للحياة البسيطة الصريحة الهادئة لا بد أن يسعد فى حياته ويسعد من حوله ويملأ الدنيا بالخير والحنان

وقد أجمعت كل الآثار التى كتبت عن « جرجى زيدان » على هذا المعنى ، بل ان مذكرات « جرجى زيدان » الصريحـة غاية الصراحة التى كتبها عن شبابه الى سن الثلاثين تقريبا تعطينا صورة الشاب المحب ــ شديد الحب ــ لوالديه ، الراغب فى اسعادهما وحمل مشاق الحياة عنهما والدائب فى سبيل ارضائهما

وكذلك كان جرجى زيدان بين زوجه وأبنائه

يروى « نعوم شقير » عن جرجى زيدان أن أهله كانوا يعشقون خصاله ويباهون به ، وان الله قد وفقه الى زوجة فاضلة كانت له أكبر عون فى جهاد الحياةوكان يحبها محبة يضرب بها المثل « ولقد طالما سمعته يقول : ان امرأتى أصل سعادتى ، وأساس نجاحى ، لأنها بحكمتها وحسن تدبيرها ، قد أراحت بالى فى منزلى فتفرغت لشغلى بكل قواى »

أما أبنـــــاؤه فان ــ نعوم شقير ــ يقول انه كان قد علمهم استقلال الفكر والحرية فى ابداء الآراء « وكان اذا أخطأ ولده رده الى الصواب برفق ومحبة كأنما يخاطب أخا أو صـــديقا .. وكان يقول : « ان الاب ليفيد أولاده بقدوته أكثر مما يفيدهم بوعظـه وتوبيخه »

ومن هذا النص نستطيع ان نكشف جانبا هأما من جوانب حياة جرجى زيدان هو الهناءة المنزلية

رجل سوى الطبع تزوج وانجب ، وزوجته تفهمه وقد استطاعت أن تحمل عنه عبء البيت فوجه جهده كله لعمله فكان نجاحه راجعا بلا شك الى راحة باله من متاعب البيت التى كان يمكن أن تثار وتحدث له ارتباكا عاصفا يؤثر بلا شك على عمله الضخم الذى أخرجه للناس

اما ابوته فقد كانت مضرب المثل ، فيها ذلك الطابع التوجيهى الذى يعطى بالقدوة اكثر مما يعطى بالكلام الكثير أو بالعصا ، وقد كان هذا سرا من أسرار نجاح اميل زيدان وشكرى زيدان ، هذا النجاح الواضح الذى اكمل رسالة الوالد العظيم ، ودفعها الى الامام بقوة ، وليست البنوة المؤمنة بالاب العظيم بأقل عظمة فقد عرف عن الرجلين ايمان صادق بالوالد العظيم وآثاره البعيدة المدى فى تطور الفكر العربى الحديث

وفى أثناء سفر ابنه « اميل زيدان » الى بيروت لطلب العلم كان يرسل اليه رسائل تعليمية غاية فى القوة والتوجيه ، لا شك أنها كانت بعيدة المدى فى تكوينه

وفى هذه الرسائل يقول جرجى زيدان « فى سنك كنت جبانا ، ولكنى لم اكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهنى الى نقص فى ولو وجد من ينبهنى الى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح أعواما ، فاستفد انت من هذه الفرصة ، ان العمل فى الدنيا يحتاج الى جراة واقدام كما يحتاج الى الثبات والصبر »

وصدق جرجى زيدان فى تصوير هذا الجانب من حياته ، حياة الرجل الاعزل المغترب الذى غادر بيروت وهو لا يملك أجر السفر ، بل اقترضها ، هاجر ليكمل دراسة الطب فلما لم يتحقق له ذلك ، بدأ حياته فى العمل الصحفى ومضى يشق طريقه ، لا يعتمد الا على شيء واحد ، كان قوته وعتاده وماله ، ذلك هو خلقه . خلقه الذى أعطى « الهلال » هذه الصورة من الكرامة والتقدير ، كان خلق

جرجى زيدان واخلاصه وصبره الطويل ــ صبر العلماء على اساءات اشباه العلماء ــ هو سلاحه الذى نجح به

وكان يستطيع جرجى زيدان أن يشتغل بالصحافة ويكسب كثيرا ، وقد اشتغل بها غيره وكون ثروة ضخمة ، ولكنه كان يهدف الى شيء اجل خطرا ، هو « رسالة التثقيف » التى أعد نفسه لها ، ولذلك سرعان ما انصرف عن الصحافة اليومية والسياسية وعمل فى الصحافة الادبية ، فترك جاها عريضا فى الفكر ، وان لم يكن قد استطاع أن يتبلغ باللقمة الا فى عسر شديد

ولقد قاسى جرجى زيدان المتاعب فى أسفار طويلة ، كان أشدها عليه سفره للمرة الاولى من بيروت الى القاهرة حتى انه سجل ذلك فى مذكراته فقال : « قاسيت كثيرا من ركوب الباخرة التجارية التى اقلتنا اليها حاملة شحنة من البقر والغنم »

وقد شهد جرجى زيدان مغامرة ضخمة فى رحلته الى السودان ، هى معارك اعادة السودان حين رافق الحملة النبيلة الى السودان

ومضى جرجى زيدان يعمل فى ميدانه ، يعمل كل دقيقة من وقته ويكد بلا انقطاع ويعتقد أن السعادة كل السعادة فى العمل ، يقول خليل مطران : ان من أسباب توفيقه فى العمل انه كان بادنا قوى الجسم فلا يشعر بالتعب

ويقول نعوم شقير ان أهم موضوع كان يشغله فى أوقات فراغه هو « أسرار الوجود والازلية » ، وكثيرا ماقال جادا : « لقد اكتفينا من هذه الحياة علما بعجزنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الاخرى لعلنا ندرك من تلك الآثار ما يشفى العليل »

وكان يقول «أود أن أكون جالسا فتفارقنى الحياة فجأة » وقد وقع ما تمناه وكان يؤمن بوجود الله وخلود النفس .. وفى ذلك قوله : « وانى لأعجب كيف يستطيع امرؤ أن يجد لذة أو معنى فى الحياة اذا خلا قلبه من الايمان بالله وخلود النفس »

ومضى جرجى زيدان فى سن باكرة .. صرعه الجهد الضخم الذى بذله وعجل به رغبته فى ان يطالع أسرار الوجود والازلية

رحمه الله رحمة واسعة

رحلاته

من المفكرين من يكتفى بالرحلة عبر المؤلفات والـكتب والمجلدات ، يطالع خلالها صور البلاد وأخلاق الناس وتطور المجتمعات وأمور الامم ، ومنهم من يسافر طويلا يعبر البحار وينتقل من قطر الى قطر يتحدث مع الناس ، ويشاهد المتاحف والآثار

وقد جمع جرجى زيدان بين الرحلتين ، فسافر طويلا فى أعمـاق الـكتب ، وسافر كثيرا فى اقطار الارض وهو كأهل الشـام مغرم بالرحلة ، محب للهجرة ولا شك أن ادبه وانتاجه التاريخى قد افاد كثيرا من هذه الرحلات التى من أبرزها رحلته الى أوربا حيث زار انجلترا وفرنسا وسويسرا ورحلته الى استامبول والسودان ومصر

وقد كتب عن رحلته الى أوربا عام ١٩١٢ رسالة قصيرة ولـكنها غنية بالمعلومات والابحاث ، وأسلوبه فى كتابته عن الاسفار يختلف كثيرا عن أسلوب الادباء الذين يحفلون بالحديث عن البحر والقطار والباخرة والطريق وهو يؤثر كعادته اسلوب العلماء الجاد الصارم الى أبعد مدى فى الجد ، ويصور هذا المعنى فى مقدمة الرحلة فيقول :

« قضينا صيف هذا العام فى أوربا بين فرنسا وانجلترا وسويسرا وتنقلنا فىأهم مدائنها فزرنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكمبردج ومنشستر واكسفورد وجنيف ولوزان وافيان ، ودرسنا أحوالها وتفقدنا متاحفها ومكاتبها وآثارها ، وتوخينا النظر على الخصوص فيما يهم قراء العربية من احوال تلك المدينة التى أخذنا فى تقليدها منذ قرن كامل ونحن نتخبط فى اختيار ما يلائم أحوالنا منها

وسنغفل سياق الرحلة فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا ولا ما لاقيناه أو كابدناه فى أثناء ذلك على ما جرت به عادة أهل الرحلة ، اذ ليس غرضنا أن يكون ما نكتبه دليلا للراحلين الى السفر ، والنزول ومعرفة الطرق والمسافات والاجور

وانما نريد أن نمثل للقارىء ما طبع فى ذهننا أثناء هذه الرحلة بعد اعمال الفكرة فى احوال تلك الامم .. »

وهنا يظهر « جرجى زيدان » فى اهابه وفى شخصيته التى نعرفها دائما ، الرجل الباحث العالم الذى ينظر الى الامور من اعماقها ويدرس أمور الحضارة ويقارن بين مجتمعنا ومجتمعهم فيما يجوز لنا اقتباسه أو نقله وهو فى دراسته هذه معتدل الراى كدابه دائما ينعى على الغرب تفريطه فى امر المرأة ، فيقول :

« .. انهم أساءوا الى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة ، ارسلوا المراة الى الاسواق تخالط الشبان وتبايعهم ، وهى ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد كثيرة ... انما خلقت المراة اما تدير العائلة وتربى الاولاد وتعليمها ضرورى للقيام بمهمتها الطبيعية فى الشئون العائلية أما تكليفها بأعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له الا اذا اضطرت اليه لاسباب قهرية .. »

وهو فى عرضه لرحلته يتناول الحكومة والعمران والحالة الاقتصادية والعلمية لكل قطر يزوره ، ثم يتحدث عن المسارح والتمثيل ومظاهر الحضارة من مركبات وأزياء ، وينتقل الى نظام الاجتماع من طبائع وجمال وطعام وشراب ، ثم يتحدث عن الحياة العامة والمراة ثم يتحدث عن الآثار والمتاحف والمكتبات بافاضة ، ذلك ان هذه الاماكن هى منازل وحيه ولطالما أمضى الساعات فى المتاحف والمكتبات باحثا عن نص او كتاب مخطوط أو أثر قديم غير معروف ليضيف به الى أبحاثه مزيدا من الضياء

وهو يبحث فى اخلاق الامم التى يمر بها ويعالجها فى هدوء ولايبالى أن ينقد أى أمة وقد نقد الانجليز فى كتابه هذا بجراة فقال : « ومما يوجه الى الانجليز من الانتقاد انهم أنانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم ، وهو خلق فطرى فى الانسان ولكن يظهر فى الانجليزى لانه لايبالى أن يظهره ويتمسك به ولا يهمه ما يسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويعدون ذلك من أسمى المناقب فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه .. »

وقد اعجب جرجى زيدان بجنيف واخذ يقارنها بالآستانة فى جمال شواطئها وتلالها المكسوة بالاشجار وذلك قوله : « وكنا لما زرنا الآستانة منذ بضعة أعوام ادهشنا بسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالاشجار والقصور وقلنا انها فريدة فى العالم

فلما شاهدنا « جنيف » وضواحيها اذا هى كثيرة الشبه بالبوسفور من حيث مناظره الطبيعية .. »

وزار قرية فرناى بجوار جنيف « وهى القرية التى قضى فولتير أعوامه الاخيرة بها ، وفيها منزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الاثاث والادوات فى غرفة النوم والمكتب والمائدة مما يبعث على التفكير فى مصير الانسان ، وانما أثر فى خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير يضعه اهل القرية فى مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام »

وكان من أهم ما لفت نظر جرجى زيدان فى رحلته ابناء سوريا وجدهم ونجاحهم « ومما يوجب الفخر أننا عرفنا فى باريس غير واحد من الادباء السوريين يجارون أدباء فرنسا فى آداب لسانهم ويكتبون فى اكبر جرائدهم السياسية فى أهم الموضوعات الحيوية ويؤلفون الكتب وينظمون الشعر .. »

ولا ينسى فى هذه المناسبة ان يذكر الخلق السورى فى صلابته وقدرته على مواجهة الحياة والانسياب معها فى كل بلد يحل فيه .. « تخلق السوريون بأخلاق المحافظة على الوقت والصدق فى المعاملة والتأنى فى الحكم ، وهى مزية للسورى على سواه تعنى قدرته العجيبة فى تطبيق أحواله على الوسط الذى يعيش فيه .. »

ولا شك أن هذا المعنى يعطينا فى هذه الدراسة مزيدا من الفهم لشخصية جرجى زيدان الذى أحب مصر واحب العربية وخدمهما فى اخلاص وجد طوال حياته

ولم تقف رحلة جرجى زيدان عند هذا الحد ، بل انه طاف مصر من أقصاها الى أقصاها فى زيارة واسعة النطاق لم يدع أثرا من آثارها ولا مكانا من اماكنها التاريخية دون أن يرتاده وذلك فى سبيل كتابة تاريخ مصر الحديث ، وهو يصور هذا فى قوله : « .. وقد عنيت

اتماما للفائدة تفقد الآثار العربية بنفسى فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، وزرت ما هنالك من البيانات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكه فيها ولا سيما أسوار القاهرة وأبوابها

ومن هذه الاماكن ما تداعت أركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة ، فكثيرا ما كنت أخاطر بحياتى لهذه الغاية ، ومن الآثار العربية التى تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكايا والشوارع قصر الشمع أو دير النصارى فى مصر القديمة ودار التحف العربية فى جامع الحاكم بشارع النحاسين

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضا ولا سيما ما هو منها فى مصر العليا مبتدئا من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود وأبو سنبل وغيرها

ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئا بالمطرية فانتريب فغيرها وفى مصر العليا فضلا عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك او غيرهم فى حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم كلّ هذه الاماكن تفقدتها جيدا اتماما لمعدات التأليف .. »

ولعمرى هذه أمانة المؤرخ ، المؤمن بواجبه ، يتحمل المشاق ويذهب الى اقصى الارض ليبحث وليرى ، فى اوربا يبحث عن المؤلفات والمراجع ويشاهد المتاحف والآثار والمكاتب ويراجع ويحصى ويدون ملاحظاته ويكتب مذكراته وفى مصر يشاهد كل أثر من الآثار ليستطيع أن يكتب لمصر تاريخا صادقا قوامه المراجع والمرئيات

وهذا ولا شك عمل جديد لم ينهجه مؤرخ فى العصر الحديث قبل جرجى زيدان

سطور من حياته

- أنشأ فن القصص التاريخية فى الادب العربى على نحو مافعل « ولترسكوت »
- الرائد الذى أرخ تاريخ « التمدن » الاسلامى وتاريخ الادب العربى لأول مرة
- لا يؤيد فكرة معينة ولكن يعمل على نشر الثقافة وحدها
- ينقل فكرته الى قارئه بألفاظ بسيطة خالية من الركاكة والتعقيد
- كان فى تسامحه القدوة الصالحة للمؤرخ
- المؤرخ الذى لا يتعصب ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل
- علم أدباء البلد كيف يتناظرون دون أن يتشاتموا
- أنجز فى ربع قرن ما يعجز الاقران عنه فى قرن كامل
- كان صديقا للجميع ولكنه كان عدوا لنفسه فلم يشفق على جسمه وذهب شهيد العمل الشاق
- له فضل على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق عليه من آثار المدنية العربية وتاريخها
- لم يشك دنياه مرة بمحضر من أحد ولا تمنى على أحد شيئا باشارة أو مصارحة
- ما عرف رجل أجمع منه للنقيضين الكبر والاتضاع
- كان الكساء والطعام والرياش أعراضا فى نظره لا يعتد بها
- كان بزهده وتعففه يقتنى تلك البشاشة الدائمة التىلاتنطفىء ولا تغيض
- يبتدىء فضل جرجى زيدان بأنه علم نفسه ثم أصبح معلما لغيره مدى حياته

- لا يوجد من ترك فى العصر الاخير كمية كبيرة من العمل العلمى والادبى الجدى مثله
- كان كاتبا مؤرخا ، ومنشئا قصصيا وباحثا اجتماعيا ومنقبا لغويا وفيلسوفا عمرانيا لأنه طرق أبواب كل هذه العلوم فى كتبه
- رأى أن التاريخ يصعب تعميمه فعمد الى صوغ حقائقه فى قالب روائى
- رجل من قمة رأسه لاخمص قدميه كما يقول شكسبير
- كان قبيل وفاته واقفا وقفته لم يقلل من ساعات العمل ولم يتضجر ولم يتأفف من كثرته
- مؤلفات جرجى زيدان جداول وليست شلالات وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات
- الطبع السليم هو أساس تفكير جرجى زيدان يمده الاطلاع الواسع والبحث العلمى الحديث
- جرجى زيدان أقرب لمدرسة الحكمة منه الى مدرسة العلوم الطبيعية
- ما زال يصارع الحوادث وتصارعه حتى بلغ من العرفان ما أبلغه الطريق الذى توخاه
- كل ما كان حوله من أول نشأته وما اعترضه فى طريقه كان يهيئه لأن يكون فى الحياة شيئا
- وهب نفسه للعلم كما يهب العابد نفسه للدير
- عرض التاريخ الاسلامى عرضا جذابا يقرب أعقد المسائل الى أبسط الاذهان
- تغلب على أبحاثه النظرة التاريخية للموضوع والتسلل المنطقى فى التفكير والنمط التعليمى فى تحديد الموضوع
- ضحى بجمال اللفظ لجمال المعنى ٠ وبرصانة الاسلوب ليفهم الجمهور ويدفع القدماء لمجاراة روح العصر

- كان شعبيا فى علمه وفى أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عن الاسفاف والابتذال
- خطته فى عمله التوفيق بين القديم والحديث والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغــرب وبين ميراثنــا المعنوى وما تنتجــه القرائح فى البلاد الناهضة
- وضع بخطته الكريمة فى مناظرة خصــومه أول حجر فى بناء تقاليد جديدة فى المحيط الادبى

